ذكرى ابراهيم عبد القادر المازني

بقلم الدكتور بشر فارس

اراد الله ان* تكون نسماً فكنت ، فكأنك جئت الى الدنيا على جناح صَبا رقّت ولانت ، ما هبّت يوماً الا هفّافة ولا دخلت بستاناً الا مستأذنة لا توغل . انت يا اخي من فوحات الروح الزكية ، ما عرفتك الا هكذا خمس عشرة سنة ، ثم غبتَ فتلفتّ أعتاض عنك هفيفاً يحيي الخاطر ويمسح عن الجبين حر الدنيا فما وجدت . غبت فجأة ولم أضمّ الى صدري لطف حسك ساعة احتُضر ولم استق من نقاوة قلبك لحظة الرمق ، أنا الصديق الذي لازمك ويوماً يوماً عرف شانك . ودعتك وانت تشكو وما كانت الشكاة مبرحة ، ثم تركتُ مصر على ان اجدك عند العودة معافى ، الا انك سرعان ما مضيت الى لقاء ربك . ولم يأتني النبأ الا بعد ثلاثة اشهر ، في باريس ، فيا له من يوم انعصر القلب فيه ، ووالله عصى القلم في كلمة أسطرها : كان ذهول أخذ على الفكر المسالك ، فما قويت الا على التوجع في اثناء محاضرة هنالك في الأدب العربي الحديث .

***

في هذا الادب لمعتَ لمعاناً فريداً . دخلت اليه من باب الشعر المصفى فأخرجت الخلجات وأثرت الخفيات . كنت صادقاً لا تجري وراء بهرج في اللفظ كان دأبَ معاصريك في الشرق ، وكنت اياك لا تغير على تراكيب الأقدمين معارضاً او محاكياً . وذهبت في النظم الحر مع المدرسة الطالعة في مصر وهي تنافس مدرسة المهجر ، حتى بدا لك انك غير مجيد فأمسكت وانت مشغول بالتمام والإحكام ، على انك سرت اليها في خطو ثابت منفسح ، ولكن الصبر أعوزك فحرمتنا الخطرات اللماحة والهواجس الرهيفة .

وانصرفت الى النقد ، فصنعته على غير مثال عندنا ، اذ طلبت المعنى وغيرك كان يقنع بالمبنى ، واستجليت المغزى ومقياسك عيون الأدب في الشرق وفي الغرب ، وعُدتك ذوق مصقول وألمعية نفاذة . فأخرجت اول عهدك فيما اخرجت « الديوان » و « قبض الريح » . فكنت ممن حوّل النقد من نحو الى نحو ، وعلم الجيل ان النظر في الادب فن لا تتبّع ودراية لا تعمّل . وقد يكون عنفوان القلم جرك الى الشدة حتى انك انكرت في كهولتك طرفاً مما نسجته في فتوتك . غير انك ظللت عفيف اللسان ، كريم النفس . ومضيت في النقد استاذاً بصيراً حتى ألفت كتابك « بشار بن برد » ، فأعرضت عن آراء من سبقك ونظرت بعين ابن القرن العشرين ، فجئت بمعيار للفحص مستحدث اذ نزهت غاية الشعر عن الاغراض الدنيوية وغضبت لجلال الفن وعزة القول . والى هاتين الصفتين تُرد اقوالك الطريفة في بشار وقد عبت عليه أخذه ممن تقدمه وجريه على مناهجهم ، ونددت بسقوط طبيعته البحاثة عن لذاذات الجسد حتى انها قصرت عن سمو المعنى واخلاص السريرة ، وثرت على إغراقه في الهجاء مع تطلبه البذاءة فيه كأنه يحط من قدر الفن ، فن الشعر . ولم ترسل حكمك ارسالا وانت تعرف كيف تتدبر المنظوم وتتصفح الخبر لتستشف روح الشاعر . فما ابرعك في استخلاص جبن بشار وعجزه وتبيين ميله الى انتهاب العيش دون التأمل فيه ! .. نقدك يا اخي حقيق بان يحتذى في زمن تكاد مقاييس النطق تضيع فيه او تزلق الى ايدي فريق من الكتبة المقتحمين والمرتجلين .

***

ولكن النقد الذي مهرت فيه ما ارضى قوتك على الانشاء والاختراع ، فانثنيت الى القصص . والقصص فن هيّن ، على ما يتوهمه الناس ، ولكنه ، على ما فهمته انت ، شاق . كتبت الاقصوصة والقصة ونجحت في كلتيهما . فلك « في الطريق » و « عَ الماشي » ولك « ابرهيم الثاني » و « ثلاثة رجال وامرأة » . ثم لك « عود على بدء » . وقد تنبه الافرنج لقدرتك في هذا الباب وتفوقك ، فألفوا في هذا الرسائل ومدحوك .

قد يكتب غيرك القصة وهو يتخيل الحياة فيُغرب ، واما انت فتنزل الى الحياة التي كنت تحبها حباً فتعصرك وتعصرها .

* اذيع من محطة الاذاعة المصرية

تتمسك بالواقع بل تتشبث به . هل أنسى « ابرهيم الثاني » ذلك الكتاب الجياش بالحياة التي لا تثنى مندفقها خطة مدبّرة في ذهن الكاتب ولا يعوق منفرَجها قعود في الخاطر او تباطؤ في الأداء ؟ كأنك دونت الحوادث اولا اولا بحروف مـن مادة الحقيقة فجاءت مرآة للطور الذي نقبل عليه في مصر ، وربما دخلنا فيه من حيث لا ندري : عرضت ثلاثة اصناف من النساء الحديثات تأكلهن العاطفة ، كل واحدة على طريقتها .

وهل أنسى كتابك « عود على بدء » ، وفيـه فررت من الواقع الذي تلتزمه في جميع قصصك ؟ جئت بمداورة لطيفة وقد فطنت ان حركات النفس لا تقع أبداً تحت الضغط والوزن والمقايسة والمعايرة ، فأعرضت عن تخطيط السلك وعن تحريك الابطال بخيوط تغمزها أناملك وترسلها ، ومضيت عن تبيين الحوادث وتعيين العلل . بل أجلست القارئ مـع ابطالك في صدر الحركة الرجراجة ، فيعلو معهم ويهبط ، ويُغفي ويصحو ثم ينبسط وينقبض ويضطرب ويطمئن . وهو في كل ذلك ناشط لما يتخلل التقلبات من تعليقات هي في الحق حديث النفس للنفس في تلك الناحية الغامضة التي تتغفل الوعي فتحوّل تيار الوجدان من مجرى الى مجرى . داورتَ في هذا الكتاب لمـا بعثت رجلا في جسم طفل وعقلا راجحاً في هيكل ضئيل وشعوراً فواراً في أعصاب رخوة .

ومن أقدر منك على تلك المداورة وعلى أشباهها في مـا سطرت ، وانت المتصرف في ضروب الانشاء ، نهلت أسراره من ينابيـع كتاب « الاغاني » خاصة ومـن رسائل الجاحظ ، ثم أسلمتها الى حلاوة روحك ورهافة خيالك ومتانة ثقافتـك ، فترسلت واندفقت ، وبين يديك قلم يمـده متن اللغـة بالمفردات المستعذبة ويرهفه التلطف للنكت المستملحة . وهو يجري ولا يتمادى ويسيح ويسيل على غير كدر ولا أسن : يتهزل في جد ، ويدق على بساطة ، ويوشّى بغير تصنع ، ثم يهجم على الالفاظ الجارية على ألسنة الناس في الطرقات ، وهي فضيحة من حيث لا يعلمون ، فيطلقها في سياق العبـارة ببصارة ولطافة فيطمئن الذوق لها ويهتز .

***

كانت عبارتك تدخل في اسلوب آخر اذا ترجمت ، وكنت سيد الناقلين من الانجليزية الى العربية . وحسبك « مختارات من القصص الانجليزي » . ففيها روضت اللغة العربية على تأدية معان ومحسوسات وصور واستعارات غريبة ، في بيان ناصع وتركيب سليم ولفظ متخير ، مع المحافظة على الروح الاجنبي ، ولو كنت حورت الكلام لحرفته الى نهجنا في التأليف وشرطنا في التفكير لكنت عطلت طرائف الاصل وزوّرت دخائله ، لان جريان الجملة ونبضان المعنى كلاهما رهين بالاداء .

وسهلا ممتنعاً كان اسلوبك وانت تكتب كل يوم هنا وهنـا في الصحف والمجلات لعامة القراء . وما رأيت قلماً يسرع اسراع قلمك من دون ان يتردد او يتعثر . وكنت أجلس اليك صباحاً في صحيفة « البلاغ » أحادثك او أداعبك ، فتصغي او تشارك وذهنك لا يزيغ عن خطته ويدك لا تهجر القرطاس ، كل ذلك وقلمك يتنقل من باب الى باب ، من سياسة الى أدب الى فكاهة الى مكاشفة : فمقال رزين في تصرف الدولة او في دفع الضير عن فلسطين ، وآخر في مراجعة كتاب ، وثالث كله مزاح ما جاراك فيه غير الجاحظ ، ورابع تأنس فيه الى قارئك فتنكشف له حجاب روحك الفتية بأهوائها وألوانها وتدخله الى سـاحة بيتـك تطالعه في ظرف فائق على نوادر أهلـك . حفظهم الله وعزاهم وعزانا جميعاً عن فقدك .

***

ولولا ضياع حظ الأدب الصرف في هـذا البلد ، ولولا تكاليف الحياة الحاضرة مما قد يصرف النشاط عن تحبير الكتب الى تسويد الصحف وممـا يربك الحس ويوهن البدن ويـدني الهلاك لكنت متعتنا بآيات أخر وذهبت تؤنسنا بالحفائف ، وانت تقطـّر في كل ذلك عصارة خبرتك ونزاهة طويتك وسماحة همتك وبراعة فطنتك ممزوجة جميعاً برقة حاشيتك ، كما صنعت في آخر كتاب أخرجته وهو « من النافذة » حيث تقول : « بعد ان كنت آخذ الآراء من الكتب او الناس صرت آخذها من الحياة بلا وساطة وأعرضها على عقلي بلا مؤثر ، فاعتمدت الاستقلال في النظر والحرية في التفـكير . وصار نظري الى الناس نظراً الى مادة تدرس فتذهب عن الموضوع الصبغة الشخصية ، فكأني امتحن نظرية ولست أزن صنع انسان أساء او احسن . »

أجل بلغت آخر ايامك تمام المروءة ، فكنت الاديب الانساني رحمك الله يا صديقي ، يا أخي ، يا من بين سره وسري جرى الود المحض .

القاهرة — بشر فارس

المازنى كما عرفته

بقلم عبد الحميد جودة السحار

كنت أقطن* والاستاذ المازني في حي واحد ، فكنت اذا ما خرجت في امسيات الصيف للرياضة ، ألمح المازني جالساً امام حلواني النجمة بميدان الظاهر ، او امام محل استرا المشرف على كازينو السكاكيني ، وهو يرقب العاملات [....] العائدات من محال عملهن وقلما كن يعدن خاليات الذراع ، فكل واحدة منهن تتأبط شاباً ، وقد جرى العرف بينهن على ان تصادق كل منهن شابين ، احدهما يتكفل بمصاريف انتقالها من البيت الى محل عملها طوال الاسبوع ، والآخر يتكفل بمصاريف يوم الاحد ، وكنت أقرأ قصص المازني التي ينشرها في «الرواية والرسالة» في ذلك الوقت فألمح بين ابطالها فتيات حي الظاهر [....]

وتقابلت انا والمازني مصادفة وهو في طريقه الى حلواني النجمة فالتقت عيونا ثم انطلق كل منا الى سبيله ، ومرت ايام وتقابلنا مرة اخرى لقاء عابراً فبدأني بالتحية وكان يحيي كل من تقع عليه عيناه اكثر من مرة واظن انه ذكر ذلك فيما كان يكتبه عن نفسه ، ومنذ ذلك الوقت اخذنا نتبادل التحيات عن بعد ، وقد كلفني ذلك شططاً ، اصبحت اخجل من المرور امامه اذا سارت امامي فتاة او اذا سارت الى جواري فتاة او بمعنى اصح - وامري لله - اذا كنت اطارد فتاة او اسير في رفقة فتاة ولتسامحني زوجتي فقد كان ذلك في ايام الدراسة قبل ان افكر في الزواج .

ولمحني المازني مرة وانا واقف في الصباح انتظر الترام وكان يقود سيارته المتواضعة التي اضطر في ذلك الوقت الى اقتنائها بسبب ساقه المهيضة التي جعلت من العسير عليه ان يستعمل الترام في تنقلاته ، فما كانت مظهراً من مظاهر البذخ ، فقد كان المازني في ذلك الوقت في ضيق ، - لان تجارة الادب كانت في بوار - لمحني فمال بسيارته إلي ثم سألني عن وجهتي فلما علم انني ذاهب الى مدرسة التجارة العليا ، فما كانت كلية بعد ، حملني معه فقد كان في طريقه الى دار البلاغ ولا يفصل المدرسة عن الدار الا خطوات ومنذ ذلك الوقت اصبحت لي سيارة خاصة تحملني الى الكلية كل صباح .

كنا نتحدث في الطريق ونتبادل الآراء ، فراعني ان المازني محدث لبق يستحوذ على سامعه وان حديثه الخافت رائع يستهوي النفوس لا يخلو من سخرية لاذعة او فكاهة طريفة فقد كان المازني يميل في كل احاديثه وكتاباته الى الترويح عن النفوس والسخرية من كل شيء حتى من نفسه .

ودارت عجلة الزمن وتخرجت في كلية التجارة والتحقت بعمل من اعمال الحكومة فتغير اتجاه سيري ولم اعد ارى المازني الا قليلا وان كنت اداوم على قراءة كل ما يكتب في الكتب والصحف والمجلات .

نشرت بعض اقاصيص في المجلات الادبية وكان بعض ادباء الشباب في ذلك الوقت ينشرون بها اقاصيص ممتازة دون ان يظهر لاحدهم كتاب واحد بين الكتب الكثيرة التي اخذت تغزو المكتبة العربية فراودتني فكرة انشاء لجنة تنشر كتب الادباء الذين لم تظهر لهم كتب من قبل وفكرت في ان اقصر اغراضها على الانتاج الفني واخرجت الفكرة الى الوجود واسست لجنة النشر للجامعيين وراحت تصدر قصص الشباب واخذ اسم المازني يتخايل لي ، تمنيت ان تصدر له اللجنة كتابا وكان يعكر هذه الامنية ان المازني ليس من الكتاب الشبان ورحت اقنع نفسي ان المازني وان كان كهلا الا انه شاب في كتاباته ولا صلة بينه وبين شيوخ الادب الذين ارتسمت لهم صورة خاصة في نفسي

* بمناسبة الذكرى الرابعة لوفاة المازني

الا احسبها تسرهم كثيراً. واقتنعت بهذا المنطق ، وعزمت على ان اطلب منه ان يكتب لنا قصة وان يشترك معنا فيما تقدم من انتاج .

لم اجد في نفسي الجرأة على ان اذهب اليه احادثه في الموضوع فكتبت اليه اعرض عليه ان اللجنة يسرها ان تنشر له قصة ، وان تدفع له كل ما تجنيـه من ارباحها فهي لا تطمع إلا في ان تصـدر كتابا للمازني ، وتلقيت منه رسالة رقيقة يدعوني فيهـا لمقابلته ، فذهبت اليه خافق القلب فقد كنت مقبلا على امر خطير.

قابلني مرحباً ، وقادني الى مكتبـه ، فاذا بالكتب تغطي المكتب والمقاعد والجدران ، وازاح بعض الكتب ليفسح لي مكاناً ، فجلست وانا اتلفت ، واستأذن وغاب قليلا ثم عاد بعد ان طلب بنفسه القهوة ، واخذ يحدثني في رقة ويزجي الي النصح قال ان ما عرضته في كتابي غريب ، وان الذي لا يبغي الربح معرض للخسـارة ، وان كنت لا اطلب الربح لذاته ، فعلي ان اربح لأتمكن من السير في مشروعي ، فقد لاحظ انني اقدم فعلا شيئاً جديداً ، وانه خسارة ان يموت هذا المشروع .

وخرجت من عنده وقـد اتفقنا على ان يقدم لي بعد خمسة عشر يوماً قصة ، وان ادفع له النسبة المقررة للكاتب ، وحسبت نصيبه فاذا به — مبلغ لم اكن املكه في ذلك الوقت — وان كان مبلغاً ضئيلا ، فبعت حصة من ميراث ورثته عن ابي ، لأدفع له نصيبه .

وذهبت اليه ودفعت له المبلغ ، ورفضت ان آخذ إيصالا ، واصررت على الرفض ، واثر ذلك في نفسه ، فكان له اكبر الاثر فيما كان بيننا بعد ذلك من معاملات .

وقدم الي قصة «ثلاثة رجال وامرأة» وبدأنا في طبعها ، حتى اذا ما اشرفت على الانتهـاء ذهبنا انا وهو الى المطبعـة ، فاذا به يلاحظ ان القصـة قصـيرة ، فطلب ورقاً وقلماً ، وراح يكتب وهو واقف وقد أسـند ساقه المهيضة على نضد جمع الحروف ، وانا انظر اليه مدهوشاً ، وما غادرنا المطبعة الا بعد ان انتهى من كتابة الفصل الثالث !

وانطلقنا وانا اكبر ما فعل ، فقال لي إن الصحافة علمته ان يكتب في الترام وفي المقهى وفي الحمام ، فقلت له قـد يكون من الميسور كتابة مقال في محال عام ، او على قارعة الطريق ، ولكن ما أصعب ان يكتب فصل كامل من قصة في المطبعة ، وذكرته بما قد يلاحظه النقـاد من اختلاف بين الفصلين الاولين والفصل الثالث ، فأخذ يسخر من النقاد ومن كل ما كتب !

واصبحت ازوره صباح يوم الجمعة من كل اسبوع ، فنتحدث عن الادب والادباء حديثاً مستفيضاً ، وكان يحلو لي ان اهاجم الاستاذ العقاد لانه صـديقه ولانه كان ينبري دائماً للدفاع عنه ، وقد قلت له يوما إن العقاد لا يستطيع ان يبـدع شـيئاً ، إنه لا يكتب إلا اذا رجع الى دوائر المعارف والكتب العلمية او الفلسفية يمتص منها ، فقال لي كلنا كعربات الرش لا بد ان نملأ ، فقلت له هذا ينطبق على العقاد ولا ينطبق عليك مثلا ، فالعقاد يملأ فلسفة او علماً فينضح بما ملىء به ، بينما انك تملأ فلسفة او علماً فتهضم ما تملأ به ، ثم تنتج شيئاً آخر له سمة خاصة إنه عربة رش وليس فنانا .

كنت في ذلك الوقت قاسياً في احكامي ، وكنت اهاجم انتاج شيوخ الادب ، وكان يشاركني في كثير من آرائي الثائرة ، ولو ان احاديثنا سجلت على شريط تسجيل ثم سمعها كبار ادبائنا ، لاهدروا دمنا!

وكان المازني ذا عين لماحة ، وكانت له قدرة تحويل كل ما تقع عليه عيناه الى قصة ، حدث ذات يوم ان نظر من خـلال النافذة اثناء حديثنا ، واذا به يقول لي وهو ينظر الى امرأة في الشرفة : أترى هـذه المرأة الحبلى ؟ انها ليست متزوجة ، ومع ذلك يحترمها ابوها وامها ، كانت فتاة [.....] ولكنها اليوم صديقة جندي امريكي ، ان ابويها يقابلان الامريكي بكل تجلة واحترام . وراح يقص علي قصة طريفة فكهة ممتعة .

ونظر مرة من النافذة وقال وهو ينظر الى شاب يغازل فتاة إنه يضيع وقته في الغزل ليته يـدري ان الفتاة [.....] التي يغازلها لا تعرف هذا النوع من الحب ، لو كان يعرف [.....] لأجر عندهم غرفة ، ثم دعاهم ذات ليلة الى عشاء متواضع ، فهذا العشاء كفيل بان يفتح له الطريق .

وكأنما اعجبته فكرة الحديث عما تقع عليه عيناه من شخوص فكتب « من النافذة »

وفتحت له الصحافة المصرية في اثنـاء الحرب ابوابها على مصراعيها ، فوجد الفرصة سانحة ليحقق حلماً من احلامه ، كان يأمل ان يتمكن من جمع ما يكفيه لتشييد دار لاولاده ، وكان يقول إنه يريد ان يجنبهم بعض ما قاسى ، فقد اضطرته حرفة الادب ان يبيت ليالي في مقابر الاسرة بالامام الشافعي ، وهو لا يحب ان يضطر اولاده الى ما اضطر اليه. وكان يقول في ذلك

عود على بدء

بقلم السيدة صفية ربيع

لقصة عود على بدء* مكان خاص بين أعمال المازني الأدبية وذلك سواء في موضوعها او في المعالجة الفنية لها . ففي هذه القصة وصل المازني بتهكمه الذي يعد أهم خصائصه ككاتب وفنان الى أعلى قممه . فلقد بلغ التهكم في هذه القصة مدى تجاوز ان يكون فيه مجرد طريقة خاصة للكتابة او حتى موقفاً خلقياً من الموضوع الى ان اصبح ذات الشرط الذي يتولد عنه العمل ويستمد منه شكله . وان هذه القصة باحتوائها لتهكم المازني و بتجسيدها له لتعد مثالا على مقدرة الفنان ان يخلق عمله الفني دون تجمد من موقف خلقي من الحياة او التزام طريقة خاصة من التعبير .

وعود على بدء هي قصة رجل عاد الى فراشه بعد يوم مجهد مع عائلته ليستيقظ من حلم يرى نفسه فيه في بيت كبير ومعه امه ، التي تشبه زوجته شبهاً كبيراً ، وتنشغل باعداد حفل فاليوم – كما اخبرته خادمته – هو عيد ميلاده السابع . ويلحظ الصبي محاولات عمه الدائمة ان يرضيه وتفسر له الخادمة ذلك بان تكشف له عن خبيئة عمه ورغبته الخفية في ان يتزوج امه .

* مترجمة من الانجليزية لحديث ألقي من محطة الاذاعة المصرية

ويحضر له الجنايني كيساً به نمل ليضعه في فراش عمه كما كان يفعل في كل عام . ويحين ميعاد الحفل فيحضر بعض الرفاق ليلعبوا معه و بينهم ولدان هما ابناء الشقيان فيلعبان معه ويسخران منه ويستغلان ضعفه وصوته وشعره البناتي ويظل الصبي عاجزاً عن ان يتكشف عما حوله فهو لا يعرف عنه شيئاً الاما يستخلصه من خادمته التي لا يكاد يستطيع ان يتفاهم مع غيرها . وفي نهاية القصة نرى الرجل الذي تركناه يعود متعباً الى فراشه مذ استيقظ متعجباً من انه قد أصبح رجلا عجوزاً فتضحك منه امرأته بعد ان يقص عليها حلمه وتذكره بكلمات الحاجة صباح التي زاراها بالامس وضحك منها هو وقد تنبأت له بأن ثوب الرجولة سوف ينضى عنه الى حين .

ولاشك ان القصة بموضوعها تصلح تماماً للمعالجة السيكلوجية الا اننا لن ننظر اليها من هذه الزاوية فلن نتحدث الا عن جانبها الفني حتى نرى كيف استطاع المازني ان يقدم لنا قصة متماسكة تعتمد في وجودها على موقف يسوي بين الحياة والتعبير الفني معتمداً على التهكم .

لم يكن الحلم حلماً بالنسبة له ولا لنا بل ولم يكن حديثاً عن

الوقت انه تاجر يفتح محله للعملاء فمن يدفع له عشرة جنيهات يكتب له عموداً ، ومن يدفع اكثر كتب له اكثر ، ولو زادوا لزدنا . إنه ما كان راضياً عما وصل اليه ، ولكن الضرورة ألجأته لذلك ، وقد قال انه يريد ان يضمن لأبنائه المسكن ، ثم يتفرغ بعد ذلك لكتابة رواية يرضى عنها ، ولن يهمه إذا كتبها في سنة او ثلاث سنوات ، فكل ما يهدف اليه ان ينتج انتاجاً طيباً يتفق مع قدرته الفنية ، ولكن القدر عاجله فلم يحقق من آماله شيئاً ، على الرغم مما اسدى للاسلوب الفني ، والقصة من خدمات جليلة . لقد كانت إمكانياته عظيمة ، فلو ان سبل العيش كانت قد تيسرت له ، وتفرغ للادب الذي كان يعشقه ، لأنتج في الادب العربي روائع تقف مع الروائع الأوروبية في صف واحد .

أدى المازني للادب العربي الحديث اجل الخدمات ، وخطا به في سبيل التقدم خطوات ، ولكنه كان قادراً على ان يطفر به طفرة واسعة ، وقد دل على هذه القدرة بتلك الوثبة التي وثبها يوم قدم للعربية روايته الرائعة «ابراهيم الكاتب» .

وقد امتاز المازني بتفاؤله على الرغم من سخريته ، وما قد يلوح في بعض كتاباته من تشاؤم فقد عدته في مرضه ، فقال لي وهو يبتسم : فحصني الطبيب وقال لي إن قلبك ضعيف ، فلم يفزعني ذلك ، لان جسمي ضئيل ، وليس في حاجة الى مضخة قوية لتغذيه ، فما القلب إلا مضخة . انني واثق انني لن اموت .

ولكن المازني قد ذهب وقد ترك في أدبنا الحديث فراغاً لن يسد .

القاهرة

عبد الحميد جوده السحار

العالم الغامض الذي يخلقه اللاوعي. فالمازني في حديثه عنه مدقق واضح ، انه يعتمد حقاً على هذا العالم الحلمي اللامحدود ولكنه لا يضل فيه فهو مدرك تماماً لفكرته ، قابض عليها مستعد دائماً ان يكشف لنا عنها ... وهو لم يلجأ الى الحلم كي يستمد منه تصويراً او اقناعاً فان معالجته الفنية تجعل هذين المقصدين وقد تحققا يظهران ظهوراً خفياً من خلال العمل كله . وهو لم يصور لنا بطله متنقلا من عالم الى آخر فان العالمين يوجدان معاً في مجال واحد وليس عالم الحلم بالنسبة للمازني الا امكاناً وهو يجرده بهذا مما قد يتضمنه من معان سيكلوجية ويتركز انتباهنا كله على رجلٍ قد حملته الحياة عمراً وتحقيقاً جعله يستطيع ان يصون من داخله طفولته ، فطفولته وكهولته لا يعرضان علينا ذلك العرض العادي المبتذل الذي يقابل فيه بينهما ، بل هما يوجدان معاً في حاجز واحد يعلو عن الحياة الطبيعية ولا يحده نوم او يقظة،ويستمر فيه الانتقال بينهما استمراراً متصلا دائماً. فالمازني يدرك ان بطله لو أصبح في لحظة ما في واحد من العمرين لبطلت القصة فهي لم تولد الا من خلال الصراع بينهما : « الى البارحة فقط كنت خلفت ورائي شبابي،ومن هذا الصباح او من الليل ، فما ادري ، دار الزمن — بي وحدي على ما يظهر — دورة انقلب معها الحال فصار قدامي ما كان ورائي » ومن ادراكه لهذا يكشف لنا المازني عن مرارته التي يخفيها ويحلها تهكمه ومصدر هذه المرارة رفضه ان يعترف بان تجربة بطله حلماً او تناسخا واصراره على ان يجعله يعيش المشكلة في تناقضها .

ان بطله في مطلع القصة يصف المرحلتين وكل منهما مستبعد الأخرى فاذا ما اتصلت القصة اتحدا تماماً واصبحنا نرى البطل يستجيب استجابة مزدوجة في الوقت ذاته . كانت خادمته تحكي له قصة الرجل الغني الذي اراد ان يتزوجها وهو « ابن خمسين وأصم وله ساق من خشب » « فلم اقل شيئاً ولكن الغلام الذي لبست جلده ضحك اما الرجل الذي في جوفه فحدث نفسه ان الدنيا لا تكاد تكون دنيا الا اذا اجتمع فيها كل صنوف الناس». ان الموقفين معاً يوجدان في نفس البطل لأن الواقع ذاته يحتوي على مثل هذا التناقض ، ونحن في لحظات حياتنا العادية قد لا ندرك هذا ولكن المازني بما اختار من تعبير وبالتركيب الفني لقصته يكشف عن هذه المفارقة بين المظهر والواقع .

اننا نلقى البطل في اول القصة وقد دفعته رغبة غير محددة ان يعود الى فراشه وان يكون اكثر صرامة مع بنيه فيما بعد . غير ان هذه الرغبة الغامضة تجعله يجد نفسه فجأة امام نفسه في عيد ميلاده السابع ، وفي هذا العود على البدء في عيد الميلاد يتم للرجل العجوز ذلك الميلاد الجديد الذي كان يتمناه . غير ان عود على بدء ليست محاولة لاعادة البدء او المعيشة فيه من جديد، فالرجل ينكر امكان الحياة في الماضي بتقريره الدائم لمعرفته بما سيحدث . فليس الماضي مجرد سجل الذكريات يمكن ان ينبعث ان العود الى البدء انما هو خلق تجارب جديدة من تلك القديمة الراقدة في اعماقه ، والرجعة دائرة متصلة لا تنتهي يحيا بها دائماً تجارب جديدة ، والبقاء في احد طرفيها انما هو نفي تام للتجربة .. انه يحس ان تكرار التجربة لعنة يفزع منها ويعبر عن فزعه هذا في اكثر من موضع . ولكن هل يمكن ان يكون هناك تكراراً حقيقياً... لقد ضربه الاطفال واستغلوا ضعفه الجسماني حتى تورم خده ، وجاء الطبيب ، « ولم يفطن الى هذه الغلطة الجسيمة ، وما قيمة ورم قليل في الخد وانا كلي اورام » ـ ان الطبيب لم يفحص الا الاعراض الظاهرية ولم يهتم الا بالمواضع الخارجية . ان العالم الداخلي الفردي الخاص صندوق مغلق لا يستطيع أحد « ان ينزع مساميره ويرفع غطاءه ويخرجني منه »

وبعد هذا مباشرة نجد بطلنا الصبي يغامر في الليل قد دفعته حيرة الرجل ورغبته ان يجد لنفسه مكاناً في ذلك البيت الكبير او تلك «الكرة الارضية التي ارجح عندي انني ما زلت عليها»

وتعوده في الظلام عينين واسعتين شاخصتين كعيني قط ولكنهما « منزوعتان ومرسلتـــان في الفضاء وحدهما » وراح يتخبط في الليل بحثاً عن امكانيات جديدة بكر واذا به يرد فجأة الى واقع غريب ... اذا بزمارة الانذار تنطلق مؤذنة بغـارة جوية ، فيحمل الصبي مع أهله المدسوس بينهم الى المخبأ . ويبدأ في عالم طفولته التي عادت اليه ويصف للجنايني حديث مخاطرته وقصصاً اسطورية مختلفة وهو يستشعر اثناء قصه هذا انه انما يفعل ذلك مضطراً بحكم ذلك الجسد الذي يسكنه .. وما اشد «ما تتحكم الاجساد في النفوس وتسيطر عليها» . وعند هذه النقطة فحسب تبدأ القصة في الحديث عن الطفل الذي صار اليــه بطل القصة وكأنه شيء خارجي عن نفسه ، وكأنه يعدنا لليقظة. ونهاية هذا الذي اسماه حلماً .

غير اننا لا نبلغ هذه المرحلة من القصة قبل ان تقرر فرديته وجودها واحقيتها .«وافزعني خاطر استطردت اليــه . ذلك اني قلت لنفسي ان الذي حدث لي لا يعـدو ان يكون شبيهـاً بالرفو والرقع واذا جاز هذا وتسنى فيما يلبس ، فانه لا يجوز ولا يسال اذا كان الأمر أمر شخصية . وصحيح ان الشخصيـة الجديدة التي يحصل بها الرفو والرقع جديدة، لأنها حديثة عهد بالوجود والحياة ، ولكنها تبدو للشخصيـة القديمـة التي يراد رفوها ـ لا أدري لماذا حتى كانت اخلقت او ليست أقول انها تبدو دونها وأقل منها قيمة وأهون شأناً وأقل نفاسة لأنهـا لم تنضج ولم تتعرف الحظ المقدر لها من اكتمال الجوانب » .

وعند هذه النقطة يحسن بنا ان نتساءل ، هل حل المازني تلك المشكلة التي اثارها واشرنا اليها من قبل أعني مشكلة المفارقة بين المظهر والواقع . ان المازني وقد أغلق في فرديته يقبـل المشكلة كما هي بوضعهـا ، فهو لم يتخذ طريق توفيـق الحكيم وينعزل في برج عاجي ، ولم يستطع ان يشارك اولئك الكتاب الذين يربطون قضيتهم الفردية ويرونها داخل إطار أوسع منهم فحسب . ان المشكلة لدى المازني تذوب في دموع الطفـل وهو يسرع الى خادمته بعـد ان ضحك رفاقه الصغار ممـا اسموه شكله النباتي . بل ان علاقته بالخادمة وهي ابرز علاقة من القصة ، لم يسمح لها ابداً ان تتطور بحيث تتطلب ان تحسم بحل . ففي اول الامر كان يشعر ان انجذابه اليها انما هو شعور الرجل الذي فيه فعوّل على ان يكتب مشاعره ، فلما تتقدم القصة وعلاقتهما وقالت له « فعجبت لاستحيـائك ان ادلك لك جسمك ـ وانا الآن اتعجب لنفسي ـ اشتهي ان ابوسك واستحي ان افعـل ! لعلها عينك فان في نظراتها لشيئاً» .وعند ذلك يحاول ان يكشف لها عن سره ، ولكنها يغمى عليها فاذا ما عادت الى وعيها جعلها تفهم ان ما سمعته منه انما كان حلماً . وهكذا فان الجانب المختفي في نفسه لا يمكن ان يوجد خارجه . وفي مرة اخرى حاول ان يعبر لها عن جهله بكل ما يحدث حواليه وان يعبر لها عن مشاعره نحوها واذا به يذكر زوجته فتقف الكلمات في حلقات، لا من تحرج خلقي بل من فقدان للاحساس بالحاضر والواقع ، وهذا الاحساس بالواقع لم ينطفيء بل تراجع في الزمن وهذا ما يجعله يحس انه ليس حراً . ثم ان موقفه واعماله كصبي ، الذي تسبب له هذا الصراع ، تتلقاها حياته الجديدة مباشرة في تقبل يسبق حتى محاولته هو ان يفسرها . فعندما يعـبر بدموعه عن حزنه وحيرته لتمزقـه بين العالمين لا يرى رفاقه في ذلك الا صفـة له كطفل بكاء .

وفي مثـل هـذه المواقف المتواصلة في القصة تبدو مهارة المازني الفنية في اختيار تفاصيله بحيث تتفق وتقبـل التفسيرين معاً في آن واحد وتخلق من القصة كلا كاملا . فمهارته الفنية هي في ان يجعـل هذين العالمين اللذين يستبعد بعضهما الآخر يتحدان ليكونا عالماً واحداً هو عالم الرجل الكهل . وهو يقدم لنا استجابات بطله كرجل على شكل وامثال معلقة دائماً ولكنها على الرغم من ذلك سلبية وان بدت لنا كذلك من داخل القالب الحلمي الذي اختاره .

ان تهكم المازني هو صفته البارزة كفنان . غير ان تهكمه ليس كتهكم الساخرين اللاذع او المصلحين الاجتماعيين ، بل هو اقرب الى ان يكون تهكما ابيقورياً فارغاً . ولكنه مع ذلك هو العامل الاساسي الذي يمكن للمازني ان يقبل وان يتغلب على المشكلة التي تواجهه : المفارقة بين المظهر والواقع. وهو لا يحمل الحياة معنى فاجعاً ولكنه لا يجرده منه . فتهكمه كصمام الأمن ينظم العناصر المختلفة في رؤياه الفنية بحيث تتهادن فلا تتشرد المرارة بل تكمن في التهكم الضاحك . وهكذا لا يضطرب عالم المازني بل يحفظ له تهكمه موضوعه على البعد اللازم للممارسة الفنية والخلق ولا يندفع به الى موقف او عظة . ولولا هـذه القدرة الفنية على خلق عالم متوازن لسقط المـازني مباشرة في المقم الذي ينتهي اليه اصحاب الفن للفن .

القاهرة

صفية ربيع

على باب خشبي قديم

الجرح ينزف الدماء الحارة ، فتسيل من القلب الطعين على الجسد . وفي عقدة المأساة السريعة ، في دورة الرأس وثمل الآلام . في الطعنة والخنجر يدور في المواعيد المنسية والرسائل الممزقة ... وتمثال من الرخام يمر في درب القرية جميلا ولا يراك ، يظل في النفس جزء الهي يبتسم .

وفي الاعصاب المقطعة ، عصب لا يزال يحس بمسيل الدماء الساعمة التي تروي الجسد ، وتبقيه من مساحب القبلات الحائمة . ومن ملامسات الحبيبة ، عصب سليم ، انسحبت اليه بقايا السعادة الهاربة من الطوفان ...

في الصدمة السريعة ، حين ينهار العالم في لحة وتندك مملكة النفس تظل الشمس تبتسم في زاوية مشرقة من روضة الوجدان . وينتفخ الصدر ويشمخ العنق والمنكبان : انسان يحمل جرحه والطعنة الغادرة القاتلة ، تتضاءل في كبرياء الذات فهي قبلة . والالم يصبح نبضاً عميقاً ، للقلب المائل الى السكون ... والخطوات العاثرة المترنحة رقصة طروب وعلى خشبة الحب ، ذات المسامير الدامية بطولة جميلة عاشقة ستتغنى بها الاجراس الى الابد .

قصتها . جمال . وحب . وموت .

غدا أنساك

غدا انساك وانطلق في الدروب الى صخرة تطل على الامواج اللاهية .. مع حسناء رشقت شعرها بوردة جورية حسناء من مدينتي ، اشرب من فمها حتى الصباح . ساختار انا نفسها وروحها ولون عينيها وليان خصرها وانسير مبتعدين عن رخامتك الصغيرة مبتسمين للحياة والحب فلا يتعرض لنا البوم الذي ينعق بذكراك . ساختارها شقراء تصفف سنابل شعرها كما اشتهي واسعة الخطوة ، وضاءة الملامح ،

من كتـاب « لينا »

بقلم محمد عيناني

من اسرة الجبل الملهم

فتية الجسد تغرق في بسمتها آلام جسدي . ساختارها جميلة جميلة حتى لا تقر روحك المعذبة لحظة واحدة بل تهيم ، كالحشرة الملونة فوق الثمار .

وانا بعد انتصاري على الموت اقبل الحبيبة الجديدة اقبلها في شفتيها ، طويلا حتى تمحي حسداً . وتنسحب السطور الباكية التي نسيتها انامل على رخامتك الناصعة .

في خدرها

اعراس الورد وشمل الزعفران فساطينها ، وخيط عند من حدائق الصين بلون الشاي ، ودخان ناعم هادىء يتسلل من خزانتها المعبودة ناشراً الف لون ولون متموجا يرسم امهما الرنان وعلى الشباك المربع النافذة ، طيف محياها ...

مواكب الشذى ، ومواعيد الطيب ، اجواء . من قارورة تثوي الآن فارغة تحت الكرسي تسلل منها الشميم بطيئاً كما يتسلل الحب من القلب الغادر . وخرج لينوح على قبرها ويكتب حرفا جديداً ، على رخامتها الجديدة .

ودار العطر بصدريتها الصفراء واسقمها من رنة العتاب وترامى على نافذتها ، يلامس اذيال بلوزتها الكحلية وعليها ما زالت ثنايا الموعد المعطور . وعلى قميصها الابيض ، سطور كتبتها الاعشاب والحجارة وفورة الصبا والقبلات الظمأى التي لا ترتوي ، لا تنتهي . وعطفة الخصر على الخصر .

وهنا ... هنا ... شوكة على القميص صغيرة ما لمحتها عين الام . تركها الموعد بين خيط وخيط هدية البرية الى خدرها وفي الزاوية ، على وسائلي الممزقة ، وردة مسلولة وفتحت هبة هواء ، خزانتها الحزينة فاذا بها فارغة ! اخشابها جوع وتطلعت عيناي فلم ار الا رخامة بيضاء بيضاء تنتصب في حجرة الاميرة ذات الثوب السماوي وعليها كتبت الاحزان انشودة الحب الغابر .

الخاتمة

قبل ان تنحدري إلى أعماق الارض ، في خاطري ، إلى مهاوي النسيان ، وقبل ان تجثم على صدرك اثقل الجبل ، أيتها الأميرة الصغيرة ، ذات الثوب النبيذي ، رخامة الحب البيضاء ، فلا تمر بك إلا الديدان والعصافير وخطى راعية صغيرة ..

قبل ان تجمدي تحت التراب الثقيل وتشعري بكابوس الفناء كما أشعر أنا الآن ، في اعماقي المضطربة اللاهبة ، بكابوس الحب سأتصورك ممددة في مكان الموعد في مغنى اللقاء ، بين هشيم السنابل ، وبقاياها المتناثرة ، وراء جدار البيت المطل على الطريق قريباً من هيكل عشتروت* الذي اصبح زريبة للبقر ، أتصورك بين سوق القمح المقطعة ، وبتلات الشقيق المغبرة الذاوية ، والنتن المتصاعد من أحشاء بلبل كان يصدح لنا في الصباح تحت بسمات الشمس ، ساعة الموعد وهو الان مثلك ، جثة هامدة ، خشبية ، تأكل الدودة عينه الجميلة وينحل ريشه في لعبة العناصر ، وسريان الموت .

أتصورك الان ايتها الرشيقة الغادرة جسداً جميلا شاحباً ، وجثة إلهية هامدة ، ممددة على بيدر الحب ، هزيلة ، وراء الجدار ، بين السنابل المقطعة .

* بمشتار أو بيت عشتار - قرية فينيقية أثرية صغيرة على الطريق بين السودا وطرطوس في سورية .

أنفك الجميل، وعليه قبلاتي وآهاتي، جامد في النور، وجبهتك — وقد جلت ليانها أناملي — عارية ساكنة لفحتها نسمة الموت فهمدت.

وشعرك الافعواني الرتيب، الليلي، الاسود مثل قلبي، يختلط بشحوب القش وسمرة التراب الظامىء، وثغرك الكرزي الذي كانت ترتسم عليه بسمة العطاء وقبلته. مسحته الان كف الموت بهدأة أين منها هدأة القرية حول المواعيد.

اجل أتصورك صبية مسجاة، من الشرق الى الغرب، من جدار البيت الى أقدام الشوك، والعصافير خضراء بلون الامس، صفراء بلون السل، حمراء الاجنحة والمناقير بلون الرمان والنبيذ، والعين المقرحة والجراح ...

زرقاء، رمادية كحلية، مزوقة مثل الفساطين، فيها الحسون، والدوري والكروان، والبلبل، وفيها الطير العاشق، الكناري الاصفر، تحوم كلها بصمت وسكون حول جسدك المسجى على أعشاب البرية، وفي صدرك تحت النهد الايسر فجوة خاوية دامية ... يتسلل اليها النمل ومنها تطل أوتار قلبك المقطعة.

اميرة صغيرة، ذات ثوب نبيذي وشريطة بيضاء، من النفتا على شعرها الاسود، واذنين صغيرتين كان يقبلها —أمس — رنين الاجراس ووسوسات النسيم، وهمسات العشق، دوى نبأ مصرعها في البرية فحملوها، قبل ان يهيلوا عليها التراب، تراب القرية الدافيء، المحمور المزوج بأطفال الدود، وبراعم الازهار، وجذور القمح حملوها، خائفة الى مكان اللقاء.

لا ترتعشي

لا ترتعشي. فليست هذه السطور تجديفاً على الحب ولكن اسمعي ايتها الرشيقة يا عمر الربيع، يا خريف قلبي.

لقد علموك الحب جبهة عاشق خاشعة وصلاة بين السنابل — على قدميك — وراء الجدار. وهمسات ناعمة، ومواعيد تندى بالقبل والآهات، وصوتاً هادئاً يعدك بالقصور والحلي والفساطين الوهاجة المزوقة، صوت عاشق يدنو من اذنك الجميلة فيهمس: حبيبتي. لهفة عميقة تسري من قلبه المحب، الملتاع، الطروب مواعيد لا تنتهي

الليلة، [هذه الليلة لا تلك]، التي ترتبط بشمس وقمر بموعدنا هذا، الليلة في الحديقة، ذات الاعشاب النامية الرحيمة وغداً في السحَر، في البستان، تحت الرمانة الصديقة وغداً، تحت لفحات الظهر، في ذراعي السنديانة العجوز، والان في قبلة تمتد بالنجوى والوعود والصلاة والضراعة فالغد من كماني ريق مسحور.

نطوف بك رحلة الى بلاد جديدة وحياة في بيت نكون فيه أحراراً فما لفم ومواعيد، يا حبيبتي، مواعيد. ثم تلتمع المحبة فجأة في صدري فاهتف: لينا! لقد برق مصيري واتضحت شعاب أيامي واضاء عليها نورك المقدس وانجلى كل شيء يا حبيبتي. ولن أحيا إلا في ذراعيك. فتميلين علي بقبلة حرى، لا تعي، قبلة يكون محياك وشعرك وصدرك وخصرك بعض موكبها الى كياني. وكالطوفان الذي يبدأ برذاذ هامس يحرك أعشاب البرية اليابسة ويوشوش في اغصان التفاح ثم يجرف الجبال والقصور الى البحار المزبدات.

وتتعالى امواجه الهادرة الغضبى لتصفع النخل، وتلتهم اوكار النسور، هكذا تحول موعدنا الهامس المزقزق وجوه الساجي، الى موعد هادر صارخ. يختصر الحب والسهر والشوق، في لحظة اعمق ما فيها ثورة الان، فتترك فجوة بنية حمراء في صدر القمح ...

ولكن اسمعي ايتها الرشيقة، ذات المواعيد التي اصبحت كاذبة يا ذات الضمير المبحوح علموك ان الحب ليس إلا قبلات وكلمات وهمسات وصلوات ولقد أخطأ من علمك الحب. لأن الحب — في احيان — نار، ودم!

فلا ترتعشي: لن اقطع اوتار حنجرتك فلا تصدح لغيري. ولن أفجر ضلوعك فلا ترتاح على غير ضلوعي ولن أشوه محياك الجميل بخنجري فلا تمر عليه انامل السوى ولن اخرج نساء القرية ورجالها خلفك في موكب تاعس، مثل موكب احلامي اليائسة التي تجر تابوت قلبي الى قبور الفراغ.

بل ستموتين في قلبي وروحي وذكرياتي في آمالي الوضيئة التي اشرقت يوماً بطلعتك، ولفتاتك ولطفك.

ساحفر لك قبراً صغيراً صامتاً وأهيل عليه تراب الصنم الذي عبدته، وهو الحب وقد اصبح فتيتاً من أكاذيبك وأهيل على هذا القبر الصغير الصامت المتوحد الاغصان الخضراء المقطوعة من بستانكم والورود والزنابق وعبطات القمح عن البيادر.

وأضعك هناك، ومع جسدك الوردي بلون أزهار الدفلى على الضفاف وذرى المغيب فوق مقاهي شوران مع جسدك المعبود الذي أدمى شفاهي.

سأترك — مع جسدك المعبود — القلم الذي خطت به اناملي هذه السطور وهو الخنجر الرهيف الذي ذبحتك به في برية نفسي.

محمد عيتاني

الرجل الاعزل

بقلم محمود البدوى

قصة

جلست سميرة هانم في حديقة منزلها في ضاحية مصر الجديدة تستمتع بهواء الأصيل في الحديقة الناضرة المزهرة وكان بصرها يمتد الى الفضاء الفسيح الممتد امامها حيث تلتمع رمال الصحراء تحت اشعة الشمس الغاربة .

وكان الشعاع يتجمع عند خط الافق ويكون لونا ارجوانياً اخاذاً . وكانت الصحراء ساكنة وهواء الصيف في تلك الساعة من النهار يبعث السرور الى النفس فاخذت سميره هانم تستمتع بما حولها من جمال وفتنة .. وكانت ترتدي فستانا بني اللون قصير الاكمام مفتوح العروة . وتضع في رجليها حذاء مكشوفا برزت منه اصابع قدميها وقد طليت اظافرها بالاحمر ... ! وكانت لا تلبس جوربا فظهرت الساق العبلى في كامل فتنتها كانما صبها مثال قادر .

وكانت عارية الرأس فانسدل شعرها على كتفيها وغطى جيدها .. وكانت وهي جالسة على كرسيها الطويل قد مدت ساقيها واضطجعت الى الوراء قليلا . واغمضت عينيها نصف اغماضة كانها تحلم .. وظلت على ذلك مدة حتى انتبهت على رنين جرس الباب الخارجي فتلفتت . ورأت الخادم وهي تفتح الباب ودخل شاب في مقتبل العمر يحمل بيده اليمنى بعض الكتب . ويرتدي بذلة رمادية ..... وكان نحيفاً طويل العود ، مقوس الظهر ، يضع على عينيه منظاراً سميكا ، ويمشي في تؤدة كانه يطلع ! .

وعندما اجتاز ممر الحديقة ومر بجوارها حياها بانحناءة خفيفة من رأسه وتابع سيره الى الداخل ، وراء الخادم فادركت سميره انه المدرس الجديد الذي يعطي دروساً خاصة لابنها جمال ... وكان قد جاء منذ اسبوعين ولكنها لم تره سوى هذه المرة .

وعندما نظرت اليه اشفقت على نحافته ومرضه .

وظلت في مكانها جالسة بعد ان دخل ... ولكنها عندما سمعت صوته عالياً في شبه غضب ، نهضت واتجهت الى الداخل .. ووقفت في البهو تستمع ، وكانت غرفة المكتب مفتوحة ، فسمعت صوت المدرس وهو يلقي الدرس في حدة ، وصوت ابنها يستعيد ما يقول المدرس في ضعف ، وخيل اليها ان ابنها يبكي .

فاحست بالشفقة والحنين وودت لو تدخل عليهما الغرفة وتأخذ غلامها الوحيد وتطرد الاستاذ !

ولكنها بقيت في مكانها تأدباً منها . وبعد برهة هدأت حدة الاستاذ ، فمشت الى غرفة نومها تتزين ، وعندما فرغ حسين من الدرس وحيا الغلام ... وخرج الى الحديقة نظر الى الكرسي الذي كانت تجلس عليه سميره هانم فالفاه فارغا فشعر بالهم يعصر قلبه .

واخذ حسين كلما جاء الى البيت بعد ذلك ورأى سميره هانم جالسة في الحديقة او في الصالة ، يحييها في ادب جم وكانت ترد على تحيته في فتور .

وكان كلما وقع نظره عليها يحس برجفة شديدة تسري في بدنه فيجلس على كرسيه في غرفة المكتب وامامه ابنها وهو شارد صامت فاذا شرب القهوة رجع الى نفسه وبدأ الدرس ... وكان يراها دائماً في ثياب بسيطة تكشف عن الذراعين والنحر وتنحسر عن الساقين فيحس بسياط حادة تلهب ظهره ، ويشعر بقلبه يضطرب وحلقه يجف ! .

وكان قد اشرف على الثامنة والعشرين من عمره ولكنه لم ير الدنيا الا في صفحات كتاب يطالعه في المدرسة ! وكانت المرأ

تتراءى له في احلامه كشيء لذيذ ممتع ولكن ليس الى الاستحواذ عليه وامتلاكه من سبيل . ولهذا كان يتحسر ويتألم . !

وكان عمله كمدرس قد استغرق كل وقته . وليس تعليم الصبيان بالشيء الهين فانهم ياخذون منه كل وقته ويستغرقون كل فكره ، ويجعلونه ينزل ابداً الى مستواهم في التفكير والفهم.

ولقد دخل بيوتاً كثيرة من قبل ورأى امهات واخوات تلاميذه وحادثهن وجالسهن ، ولكنه لم يشعر قط بمثل العاصف الذي يلقاه كلما رأى سميره هانم ، ولم يدر لذلك سبباً ..

كانت قصيرة القامة ريانة العود في الثالثة والاربعين من عمرها خمرية لون البشرة سوداء العينين يتألق بهما بريق آسر هو بريق الرغبة المطلقة في الجسم الممتلىء حيوية وفتنة .

وكان شعرها اسود غزيراً ، ووجهها مستديراً ، وانفها دقيقاً وفمها مفرج الثنايا ، وهنا تجتمع كل فتنتها ، فانه كان يرى دائماً فمها مفتوحاً ، وشفتيها الغليظتين مهيئتين ابداً للقبل . وكم مرة تصور نفسه يعصر الشفة السفلى حتى يدميها . كم مرة تصور ذلك حتى وهو يدرس للغلام .. كان يترك الغلام يعمل واجباته ، وينطلق هو في احلام اليقظة .

وخرج ذات ليلة بعد الدرس ، فلقي وهو يجتاز الحديقة الى الخارج رجلاً يدخل المنزل ، وكان يعرف ان زوج سميره هانم متوفى منذ سنوات فلا بد ان يكون الرجل من ذوي القربى .

ورآه ذات مرة جالساً مع سميره هانم في الحديقة .

ثم اخذ يلتقي به بعد ذلك كثيراً ، وفي الليل غالباً .. يراه داخلاً البيت وهو في طريقه الى الخارج .. فحدثته نفسه ان الرجل يبيت معها !

وكان حسين يتلهف الى معرفة بعض الشيء عنه والتقى به مرة في المقهى ودعاه الرجل الى الجلوس فجلسا يتحدثان قليلاً .. ورأى حسين ان الرجل مطلع مثقف ولكنه شاذ غريب الأطوار وعرف ان اسمه عاصم . وكان قد تخطى عقده الرابع ولكنه ظل محتفظاً ببريق الشباب ورونقه. وكان قوي الجسم مفتول الساعد طويل الوجه ابيض البشرة. في عينيه بريق الذكاء .. وكانت ارنبة انفه ملتوية قليلاً وذقنه بارزة نوعاً وكان عنقه ضخماً كانما خرج في نطاق سوى مع كتفيه ... ولهذا كان صوته جهورياً اجش وكان عذب الحديث لا يفرغ من حديث الا ليعود الى ما هو امتع منه .

وعندما حياه حسين واخذ طريقه الى الخارج لم يشعر في دخيلة نفسه بارتياح نحو هذا الرجل .

***

وكان كلما اشتد الحر اخر حسين ميعاد الدرس ساعة ... حتى كان الدرس في الايام القريبة من ايام الامتحان يبدأ عند العشاء ... وكان وهو خارج ليلاً يلتقي بهذا الرجل غالباً .. فيحييه وعلى فمه ابتسامة.. وكان يسائل نفسه ايبيت معها ... كان يشعر بالغيرة تنهش قلبه .. واخذ على توالي الايام يشعر نحوه بمقت شديد .

وكان حب حسين لسميره هانم صامتاً مكتوماً يشتعل في داخل نفسه ... وكان كلما رأى مفاتن جسمها تروح وتجيء امامه يكاد يجن ... وكان اذا بصر بها من فرجة باب المكتب جالسة امامه في الصالة تقلب بعض المجلات المصورة .. كان يحدق فيها بعينين نهمتين .. ينظر الى ساقيها ويلتهم جسمها كله بنظراته المشتعلة .. ويغفل عن الدرس وينظر اليها ساهماً مبهور الأنفاس ويحمد الله على انها لا تقع على وجهه المنفعل . وكان كلما مرت الايام اشتد تعلقه بها وزاد حبه سعيراً .. وكان يتحين الفرصة للانفراد بها وبثها لواعج قلبه.. ولكنه كان كلما انفرد بها احس كأن لسانه يقف في حلقه ولا يستطيع ان يفصح عما في نفسه .. ويزيده الكبت انفعالاً وعصبية... وكانت لا تحس بوجوده اطلاقاً .. ولا تعيره اي التفات ..

وكان كلما امتنعت عليه ازداد بها وجداً .. وكان يعود في هدأة الليل ويدور حول منزلها .. ويرقب غرفتها المضاءة من بعيد . فاذا لمحها علق بصره بها لا يتحول عنها حتى ينطفيء النور في الغرفة فيبرح المكان وهو في اشد حالات الالم .

وذات ليلة رآها وقد لبست منامتها واخذت تتزين مستعدة للنوم . ثم رأى رجلا يدخل عليها الغرفة ويقترب منها وخيل اليه انه احتواها بين ذراعيه وتصور انه عاصم .. ورآها تغلق مصراع النافذة وتطفيء النور، وبارح المكان وهو يبكي كالطفل.

***

ونجح جمال في الامتحان... وذهب حسين ليهنئه.. واستقبلته عميره هانم مرحبة مسرورة ... وسر لهذا الترحاب وجلس معها يتحدث .. واحس بنفسه لاول مرة ينطلق معها في الحديث .. وتحدث وتحدث حتى مضى جزء من الليل .. وذهب جمال لينام وبقي معها وحيداً .. وتركته قليلا وعادت ومعها مظروف صغير وقدمته له وهي تقول بصوت ناعم .

« متشكرين يا استاذ ... »

« ما هذ ..؟ »

« اتعابك . وكتر خيرك .. »

« لا .. لا .. هذا لا يمكن .. »

« .. كيف هذا ..؟ »

واعادت اليه المظروف .. فرده اليها ولمس وهو يفعل ذلك ذراعها ... فاحس بمثل النار في جسمه... وقال بصوت خافت:

« مش عاوز فلوس .. »

« امال عاوز ايه ... »

« انت عارفه ... »

« مش عارفه حاجه ... ايه ... »

« عاوزك انت ... »

واحس بلطمة قوية على خده .. ومر هذا في مثل خطف البرق .. واشارت بيدها الى البـاب وقد انقلبت سحنتها الى سحنة لبوة !

وخرج مهرولا ذليلا . كالكلب المطرود .

***

ومضى في شارع طويل ملاصق للصحراء، وهو شاعر بتعاسة مرة .. كان يود لو تغوص به الأرض ... واخذ يضرب في الطريق على غير هدى تاركا العنان لأفكاره تسبح في اجواز الفضاء ...

وكان الليل ساجياً معتماً والشارع قد اخذ يفرغ من المارة . وكان هناك اناس يسيرون رائحين غادين افراداً وازواجاً في خطوات متمهلة رتيبة . وعبر الحديقة الطويلة .. ثم مال الى اليمين في الشارع المتجه الى ميدان عمر بن الخطاب .. ورأى وهو نازل في الطريق رجلا يقبل على مهل . وعرفه من مشيته لقد كان عاصماً ... وشعر بشيء يضغط على قلبه ويحنق شديد نحو الرجل. ولما اقترب منه عاصم مد اليه يده مسلماً. وقال وعلى شفتيه ابتسامة ..

« لقد انتهت الدروس .. »

« اجل ... »

« كل امتحان وانت بخير .. »

وخيل لحسين ان الرجل يسخر منه فقال ليتشفى ووجهه ناطق بالخبث .

« اذاهب انت الى هناك .. »

« الى اين ... »

« اليها .. »

ونظر اليه عاصم طويلا .. وقال لنفسه أأحطم انف هذا المخبول .. ام اقطع لسانه ثم كظم غيظه وصمت .. وقال في هدوء وهو يخرج شيئاً صغيراً من جيبه ويقدمه اليه..

« خذ هذا هدية مني .. قد تحتاج اليه ... »

وسأله حسين مستغرباً وهو يتناول المسدس في يده بيد مرتجفة .

« احتاج اليه .. انا ... ؟! »

« اجل قد تذهب يوماً ما الى فلسطين ... او قد تفرغ منه رصاصة في رأسك » واقترب منه وهمس .

« اتدري لماذا ... »

« لا ... »

« لان حبك خاب .. »

ولمعت عينا عاصم في خبث وهو يقول هذا وتركه مولياً اليه ظهره وظل حسين يرقبه وهو يمضي والمسدس في يده ... ولمع في ذهنه خاطر سريع ... فمد المسدس ثم جبن وثنى ذراعه ... والقى المسدس على الرمال .. وسار في طريقه حتى ابتلعه الظلام ...

القاهرة — محمود البدوي

يـا ابـن قـلـبي

✡

لعبد الله النجار

•

موسكو

✡

أين انت الآن في الدنيا وفي أيّة حالِ ؟
كلما ناداك قلبي عاد لي رجع السؤال
كعطاش الطير قد صُدّت عن الماء الزلال

***

كم زجرتُ الشوق طوّافاً ببيداء المحال
لاهثَ الانفاس ، محموم الخطى ، واردَ آل

***

ايها الشوق، مضى في الافق من لستَ بسال
فاتك الركب ، وخلاّك على حرّ الرمال
وعوت حولك، نهبَ الجوع، ذئبان الليالي

***

يا ابنَ قلبي ، وهن العظم ، وألقيت رحالي
هاك فضلَ الزاد ، والماءِ ، وأسمالٍ بوالي
فاستعن ما شئتَ دوني ، بالبقيات الضئال
لا عليّ الآن من جوع لأرماقي التوالي

ومن الريح تشق الثوب عن عُود خلالِ
شبح تُدْرأ بي الاشباحُ ذعراً من هزالي

***

انّ في اذنيّ اصداءً دهاريرَ خوالي
من ذرى الاجيال، من فجر الاماني والأمالي
غير أن الارض شدّتني اليها بعقال
سئمَتْ آفاقُها طولَ اضطرابي وارتحالي
وأمالت هامتي وطأةُ أيامي الثقال
فكأني أتقرّى في الثرى وطءَ النمال
ليس يرمي وتري عن منزع القوس نبالي
وأوى اليأس الى جعبة آمالي العوالي

***

لم تزل شمسك في الرأد وقد طال خيالي
وترامت خلف اجفاني سدول من ظلال
نفد الزيت ، ولم يبق سوى فحم الذبال

***

يا رفيق العمر سرناه معاً رحب المجال
وضربنا في فجاج الارض من دون كلال
شاخت الدوحة ، والدهر ضنين بالمنال
فاتّبع ركباً أراه آتياً عبر التلال
سر مع الركب وأسلمني الى ليل الزوال
تغسل الكثبان جثماني بأنوار الهلال
ثم تحثو كفني ريح جنوب وشمال

***

حُمّ يومي ، فالتمس يا شوق غيري بوصال
وابتلِ الآتين بعدي منك بالداء العضال
أرهم مثلي ما زيّنتَ من خُلد حيالي
واجمع الاجيال للحب بمحراب الجمال
واملأ الأهراء الموت باغمار الغلال

***

ليس تبلى جدة الاعمار في دنيا الخيال

نفوس قلقة في الطبيعة

في الليل

بقلم الآنسة ثريا ملحس

ولد رحّالة ، يدور من قارة الى قارة، لا يعرف الهدوء ولا الاستقرار ، فهو ابن العالم ،وشبّ رحالة ينتقل من طبيعة الى طبيعة،لا يعرف الملال ولا الكلال، فهو ابن الطبيعة، وصحا قلبه يشدّه الى شيء مجهول يوتده الى اعماق الصخور ، وغلت روحه ، ورفرف قلبه القلق ، وعلا كبريه ، كأنه في نزاع ، لكنه لم يهتد الى المجهول،وانبعثت من قلقه الفائر،قهقهات ساخرة، هزهزت ارجاء الفضاء وجرجت الرفاق، فبربروا منه.. وانمد لسانه كالسياط الحديدة ، يسخر بكل شيء ، بكل انسان . اما والدته التقية ، فكانت محبة ، لا تريد ان يبتعد عنه الاصدقاء ، فتقول : «يا ابني الحبيب ترفّق بأصدقائك ، هم كثيرون ، لكنهم ينفرون منك ويتركونك وحيداً .»ويرفع رأسه هازئاً ويجيب بكل هدوء : ومن يأبه .. من يأبه لمثل هؤلاء السخفاء الاغبياء ، الذين لا يدركون روح الحياة ولا جوهرها ! .. السخرية ترفه عن النفس الحزينة .. شتان ما بيني و بينهم.. هؤلاء يعيشون دون احساس ، دعيهم يا اماه .. لن يكونوا اصدقائي ..

***

ظلت روحه فائرة ، ثائرة ، قلقة، حتى حمل بين انامله الريشة ، واندفع في الطبيعة ، يبحث عما يعزيه ، تاركا وراءه قهقهاته وسخرياته ، وسرعان ما اطمأن الى الطبيعة ، ووجد فيها راحته وسعادته ، فشاركته عبقريته الفريدة ، وادركت روحه العميقة ، وسخريته اللاذعة ، وشخصيته الرائعة ، وراح يرسم ، ويرسم .. وهدأ قليلا ، يجس نبضات الطبيعة ، ويسمع منها الحاناً عجيبة ، ويبصر بقلب نقّاد .. وتنفجر من سحره ضحكات مرحة، تخفف من تشاؤمه العنيف ، وآلامه المبرّحه ..

***

في الطبيعة وجد محجته ، وجد كعبته ، وآمن بقواها ، وجبروتها .. آمن بكفر وشك ، غير انه لم يكن مؤمنا كما كانت والدته المؤمنة الصالحة التي لا تعرف محلا الا الكنيسة ،كان كافراً وثنياً في نظر والدته المؤمنة الساذجة ..

***

لكل انسان محجة وكعبة ، لكل انسان عبقري دين ، وليس الدين الموروث هو الدين الذي يهدي النفوس ، ويرقيها .. وليست الاناشيد الدينية هي التي وحدها تسبح الله ، بل كانت كل لوحاته صلوات ، وكانت ريشته الجامحة ، تسبح العظمة والجهالات وكانت الطبيعة هيكله ومحرابه .. كلها تتوجه الى الطبيعة الرائعة كي تسمعه الملحنات والاناشيد ..

***

لم يدع اليأس ينسرب الى قلبه ، بالرغم من حزنه الطويل، وألمه المضيض وجوعه المغري ، بل كان كالعملاق ، كالمارد ، يحطمها تحت اقدامه بقهقهة واحدة ، ويسخر بالقدر ، كانه يريد ان يصارعه في كل همسة من همساته ، وفي كل حركة من حركاته ، وفي كل غطة من غطات ريشته .. انه خالق الملحنات البيضاء والسوداء معاً ، فالملحنات البيض تثلج صدور السود . واللون الاسود ، يومىء الى اللون الابيض ان لا ينسى دنيا الالام والاحزان..حقا كانت لوحاته عزاء للبؤساء ، وانتصارا على الشقاء ..

***

لم يأبه للمجاملات ولا للرياء ، وهرب منه الناس اتقاء للسانه الحاد ، اما اصدقاؤه فقد ابتعدوا عنه .. ما اسرع ما كان يلم الاصدقاء ! وما اسرع ما كان يفرقهم ! ويهز رأسه قائلا : ومن يأبه لمثل هؤلاء السخفاء الذين لا يفهمون دقائق الروح ومعاني السخرية » .. وينطلق وحيداً غرداً الى مرسمه ، يسجل على لوحاته قطعاً رائعة ، تنتصر على الضعف والفقر والتشاؤم ..

***

كان تشاؤمه في الحياة تشاؤما بناء ، لا يعرف الهدم ولا الدموع ولا الخراب بل يأخذ منها كلها حياة ، فتزيده حياة على حياة .

يحب اللون الليلي ، يجد فيه هناءة وسعادة كبرى ، فيه يذوب بالقوة العبقرية الخلاقة ، وبالالهام المبدع .

بالرغم من قهقهاته المتعالية، وسخرياته المتواصلة، ومزاحه العنيف، فقد كان يحب العزلة، يحيط نفسه بهالات من الضباب، تنعقد الغيوم عندما يصمت، وتنفرط عندما يقهقه بمرح ساخر، حتى قيل انه فيلسوف، اكثر بصيرة من فلاسفة القرن التاسع عشر اجمعين.

***

انتقل من باريز الى لندن، وحطّت قدماه هناك على ارض لندن، واطلق قهقهاته واحدة، واحدة، حتى شعرت الطبيعة بوجوده، فاهتز ضباب لندن العنيد الكثيف، وتفرق... وفزع منه الناس، وارتدّوا عنه خائفين، لم يفهموا هذه الشخصية الغريبة، وهذا التصرف الشاذ، ولم يدركوا فلسفته، ولم يفهموا ملابسه الثائرة، بل عدّوها ضرباً من الجنون.

صعق اللندنيون عندما رأوه حاملا مظلتين: احداهما بيضاء والثانية سوداء، وقد سئل عن السبب فأجاب: ان الطقس طقس لندن الخائن اللعين اجبرني على ان اسلّح نفسي، واتّقيها من شروق الشمس ونزول المطر في آن واحد..!

***

احب الفنان الليل، في الليل يذوب كل كائن، يتلاشى كل انسان، كل شيء.. في الليل يهدأ قلبه المعذب وتنفتح بصيرته الملحاح، ويرى ما لا يراه بالعين، ويسمع ما لا يسمعه بالاذن..

لم جمال السماء والارض، حفظها كلها، لا بل نحتها في روحه القلقة لتهدأ وحملها الى مرسمه لينثرها في الغد ملحنات رائعة، وقطعا ليلية جليلة..

وبعد.. حوّل اللندنيون دهشهم لتصرفاته الشاذة الى اعجاب بفنه الذي بدا فيه مخلصا، صادقاً، مؤمنا بانتصار عظيم، انتصار الانسان على القدر، وسحق الآلام والامراض والفقر، وتحويلها الى روائع خالدة، لا يحسها الا الموهوبون العباقرة..

وغبّ من الليل ما شاء وراح راهب الليل وسلر Whistler في اعماق الليل يجلس امام شواطىء التهر ساعات في الدغشة المتلألئة، يحفن منها جمالات وفي النهار يضمها على لوحاته خالدات..

هذه النجوم ترمي شعاعاتها رشرشات، من الازرق حفنة، ومن الاصفر حفنات، تركد على جسر هناك انها ملحنات صامتة وثنائيات، فيها تتكلم الارض، وتتحدث عن اسرارها السماء، وتهمس للقلوب الواعية عن ماهياتها، هذي ملحنات صادقة، لا ترى فيها خطأً واحداً مهملا، ولا لوناً واحداً نافراً، ولا فكرة واحدة نابية، هذي القطع مزامير الحياة الصادقة..

***

هذا الفنان «وسلر»، هذا هو راهب الليل، غطّ قلبه في الليل، في سواد الليل، لكنه لم ينس غمزات النجوم وابتساماتها، لم ينس اعماق الليل وعظمته عندما يستوي فيه جميع الكائنات، فتبدو الاكواخ الحقيرة كالقصور الشامخة، والصعاليك كالملوك..

كل شيء كل انسان يخضع لهذه السيطرة السحرية العجيبة، سيطرة الليل على الارض والسماء.. وبعد هذا الانغماس في الليل يخرج الفنان وفي روحه الف حكاية

وحكاية ، وفي رأسه الف باب وباب ، وفي اعماقه الف معنى ومعنى ..

***

كثير هم الذين لم يفهموا روح « وسلر » ، كثير هم الذين هابوا لسانه الساخر الذي لم يرحم احدا بل ظل يسخر بالجهل اينما كان ، وكيفما بدا ..

كان لاصدقائه حظ كبير منه ، كذلك لتلامذته ونقاده .. لم يأبه لهؤلاء المخاليق ، ولم يصغ الى النقاد الثرثارين ، بل تحرر من الناس جميعاً .. وما ابدع التحرر من الناس الذين لا قيمة لهم ! فاعتزل في مرسمه ، وظل مخلصاً لريشته حتى النهاية ، وظل معتصماً ببرجه حتى الموت بالرغم من المثبطات العنيفة التي حطمت عظامه ، كلها كانت تنحني صاغرة امام ضحكاته الساخرة .. اما مبدأه في الفن فهو ان يحوّل العلم الى فن ، والفن الى علم ، واروع علم عرفه الفنان هو علم الجمال ، لان الجمال هو كل شيء في الحياة ، فكأنه ردد قول كيتس Keats في قصيدته المشهورة : « نشيد الآنية الاغريقية » : الجمال هو الحقيقة ، والحقيقة هي الجمال .. هذا كل ما يجب ان تعرفه على الارض ، وكل ما تحتاج اليه ايها الانسان .

***

لوحاته كلها تبدو كأنها تتأمل في مرآة ، تخفي انفاسها دهشاً لروعة الجمال فيها ، وعظمة الابداع .. ملحنة سوداء وبيضاء ، امرأة تعزف على « البيان » بثوب اسود ، وفتاة تستمع اليها بثوب ابيض ، كان الوحي من الليل الاسود والنجوم المتلألئة البيضاء ..

ملحنة اخرى بيضاء هي طفلة بثوب ابيض هفهاف وشعر احمر ..

ملحنة الامومة ، تحدثنا عن والدته التقية المحبة التي ترضى بالحياة كما هي ، فيها فرح الام وقلقها .. اما ملحنة العقل فهي تحدثنا عن رجل العالم الساخر كارليل Karlyle يبدو تعباً ، غامضاً ، مشمئزاً من الحياة التي تعد الكثير ، ولا تعطي الا القليل ..

كلا الملحنتين تعبّران عن اعماق الانسان ، توحّدان الفرح والالم ، والتفاؤل والتشاؤم ، والقلب والعقل .. احداهما تمجّد الامومة والثانية تعظم البطولة .. اما لوحة السماء فتبدو كالسهم الناري المنطلق من جبهة الليل ، قطعة ليلية ، مغموسة بالليل ونجومها ..

***

كان « وسلر » يرسم دون ملل ، يقف متأملا دون تعب ، يسجل ما يحس دون رياء .. عشق الليل وهام به ، وقد عبّر عنه في جميع لوحاته التي دعاها بالملحنات والالوان ..

اما الفنان ، فلم يكن رساما فحسب ، بل كان شاعرا ، وصف الليل بقطعة شعرية رائعة ، لم تكن لوحاته اروع منها .. ولانت له الحروف ، كما لانت له الالوان والالحان وكتب قصيدته :

عندما يكسو الضباب شاطىء النهر ،
عندما يكسوه شعراً رائعاً كالغلالة الشفافة .

عندما تذوب الاكواخ الحقيرة في السماء الليلي ، وتتلاشى المداخن الطويلة .

عندما تتحول الاكواخ الحقيرة الى قصور شامخة تحت اجنحة الليل كأنها لاد عبقر

يسير الى بيته عابر السبيل ، والعامل والعالم ، والعاقل والمجنون ، والحزين والطروب ، جميعهم ينقطعون عن التفكير عن الفهم ، يطأطئون رؤوسهم لاجنحة الليل ، يذوبون في عالم واحد ..

اما الطبيعة فتبقى ساهرة ، تغنّي للشاعر الشرود اغنيتها تناغي الفنان ، لانها امه ، تنشده على قيثارها لانها سيدته ..

امه لذلك يحبها ، سيدته ، لذلك يفهمها ، ويدرك اسرارها ..

***

ويسمع « وسلر » في الليل الف ملحنة وملحنة ، ويسمع في الليل الف نشيد ونشيد ، هو رسام شاعر ، قدّم قلبه قربانا للطبيعة الرائعة ، لامّه وسيدته.

وعندما شعر بالصقيع يدب في عروقه وعظامه ، انطلق الى امه الطبيعة ، الى سيدته ، ينتقل معها من زاوية الى زاوية كأنه ينشدها اناشيد الوداع ، يتمرغ بشعاعات الشمس الدافئة ، كأنه يقبل شعرها الحريري

احسّ صقيع الموت في صدره وفي انامله .. فرك قلبه ، وفرك انامله ، فلم يسرع قلبه ، ولم تلن انامله ، واسرع الى مرسمه مثقلا بالاناشيد والالوان ، وحمل ريشته ليخفف عن صدره ، وعن انامله ، ويحط الحمل على لوحته ..

حرك الريشة ، فلم تتحرك .. لاعب انامله ، فلم تتحرك .. وضع يده على قلبه فأبطأ

احس صقيع الموت يدب في عظامه دبيباً ، ثقل رأسه ، وتعثرت انامله ، سقطت ريشته باكية ، فابتسم راضيا ، مطمئنا ، ومضى في طريق الخلود ..

عاد « وسلر » الى صدر امه وسيدته عاد الى عالم الليل الازلي ، وانطوت قهقهاته ، وتكسرت ريشته ، ونام نومة هادئة ، يلفه الليل باسوداده الجليل ..

ثريا ملحس

المسؤولية الجمعية في الحالات العادية والثورات

بقلم رميان منياس
ليسانس في الفلسفة والعلوم الاجتماعية

تتجه المسئولية اصلا* الى الشخص الذي تتوفر فيه شروط معينة . ولعل اهم هذه الشروط وهي المتفق عليها في القانون الوضعي الآن هي :

اولا : ان يكون المسئول انساناً . وهـذا الشرط يفهم ضمناً. فالحيوان والجماد غير مسئولين عن الاعمال التي تنتج عنها اضرار · وبالتالي لا يوقع عليها جزاء كما لو انهـا صدرت عن انسان . وهذا امر لبداهته لم يذكر صراحـة ضمن شروط المسئولية جنائية كانت ام مدنية .

ثانياً : ان يكون حياً : فالمسئولية تسقط بموت المسئـول .

ثالثاً : ان يكون عاقلا : فاذا ثبت ان مرتكب الجريمة يشوبه انحراف عقلي تسقط عادة مسئوليته ويوقف الجـزاء .

رابعاً : ان يكون كامل السن : فالطفل لا يعد مسئـولا قانونا عن الاعمـال التي يرتكبهـا مخالفاً بذلك نصاً او قاعدة قانونية او اتجاهاً جمعياً .

خامساً : ان يكون فرداً مشخصاً : فالاصل ان كل فرد مسئول عن اعماله . فلا يسأل شخص عن خطـأ ارتكبه غيره.

ولكن بدراسة تطور نظم وصور المسئوليـة . نرى خلال التاريخ ، وفي بعض البلاد انواعاً من المسئولية اخذ بها دون توفر هذه الشروط ، ويهمنـا من هذا البحث بالذات الشرط الاخير وهو مسئولية الشخص بذاته .

فقد لوحظ ان المسئولية كانت تقع احيانا على الجماعة التي ينتمي اليها المجرم ،فتتحمل هذه الجماعة جزاء جرم احدافرادها او بعضهم او جزاء انحراف في سلوكها العام .

والمسئولية الجمعيه ـ شأنها شأن المسئولية الفردية ـ تتخـذ اشكالا مختلفة . فقد تكون مسئولية ادبيـة ـ اي لا تنظمهـا نصوص وضعية ـ بل تقوم دون توفر هـذه النصوص ويقتصر الجزاء على الموقف السلبي الذي يقفه المجتمع او جماعة الرأي العام من الهيئة المسئولة كاحتقارها والحط من شأنها والوقوف من مشاكلها وأزماتها موقفاً سلبياً . وقد تنظمها قواعد ونصوص وضعية . ويوقع جزاء مادي على افراد الجماعة او يصيبهم عقاب جسدي . او ان تحرم الجماعة من الاشتراك في عمل معين يعد الاشتراك فيه شرفاًـ او يوقع عليها حصار من نوع معين ـ وهكذا من انواع الجزاءات المختلفة التي تدل على النفور من جرمهم .

ولا يشترط ان يوقع الجزاء على جميع افراد الجماعة حتى تكون المسئولية جمعية . فقد لا ينفذ العقاب الا على بعض افرادها فقط معتبراً انه لشدة ارتباط الافراد وقوة تضامنهم كانما وقع على جميع الافراد . فمثلها كمثل قطع اليد كعضو من اعضاء الجسم فهو يعتبر عقابا للجسم كله .

ولو ان للمسئولية الجمعية صوراً مختلفة من الحالات العادية الا انها تكثر في الحالات غير العادية ويدخل ضمن مفهوم هذه الحالات الاخيرة الثورات والانقلابات السياسية والحروب .

وكما ان هذه الصور المختلفة للمسئولية الجمعيـة تبدو واضحة ومتوفرة في مجتمعاتنا الحديثة الراقية ـ كما سنـورد امثلة على ذلك من الحالتين السابقتين ـ الا انها حقيقة هي صفة من اهم الصفات المميزة للمجتمعات البدائية . وعلى العموم المجتمعات التي تنعدم فيها ـ او تكاد ـ الفردية Individuality بمعناها الاجتماعي الحديث ـ ويزداد اندماج الفرد في الجمـاعة حتى لا تصبح له شخصية ذاتية في حالته كفرد قائم بذاته منفصل عن الجماعة .

ولما كانت المسئولية الفردية هي الاصل في مجتمعاتنا الحديثة ـ فلا تنشأ المسئولية الجمعية الا في حالات خاصة كالجرائم العنيفة التي لا يتحملها ولا يتقبلها العقل الجمعي او في الحالات التي لا يمكن بها الاهتداء الى المجرم نفسه او التي يصعب فيها عقابه دون ان يؤدي هذا العقاب الى المساس بالجماعة التي يندمج فيها ـ او في الحالات التي يصعب فيها محو معالم الجريمة حتى يمكن ان ينساها المجتمع بسرعة .

* يقابل المسئولية الجمعية المسئولية الشخصية او الفردية .

المسئولية الجمعية في الحالات العادية

ولعل اهم مظاهر المسئولية الجمعية في الحالات العادية «الاخذ بالثأر» والاصل في الاخذ بالثأر ان يعاقب المجرم وحده. ولكن حالة المسئولية الجمعية في الاخذ بالثأر تظهر اذا ما هرب الجاني من العقاب او كان غير معروف او ابت الجماعة التي ينتمي اليها الا ان تحتضنه ورفضت فرزه ليعاقب بمفرده. فعندئذ تتحمل القبيلة ـ عادة ـ او الجماعة كل جزاء هذا المعتدي. وقد اخذ بهذا النظام في جميع شعوب الارض تقريباً ولا سيما البدائية كالامريكيين والاستراليين القدماء. وحيث تضعف سلطة الحكومة على نفوس الافراد وقد ظهرت بوضوح في بلاد العرب وعلى الاخص قبل الاسلام حيث كان الدافع لهم دائماً حماية الشرف والجار او الضعيف. وما زلنا نلمس لهذا النوع من المسئولية صوراً واضحة في صعيد مصر حيث تضعف الفردية ويقوى التكتل الاقليمي او القروي وتنتشر العصبية بين افراد العائلة الواحدة. وخصوصاً في القبائل التي تنتشر على جانبي الوادي. على ان هذا النظام في مصر يضعف او يكاد ينعدم في المدن الكبرى حيث يتخلخل التكتل في الاسرة الواحدة. وتظهر الفردية في علاقات الافراد وحيث تقوى سلطة الحكومة، ويسود القانون الوضعي وتضعف العصبية التي تعتبر عاملا مهما في الاخذ بالثار ويسود مبدأ «المسئولية الفردية» اي مسئولية الفرد عما يفعله.

وقد كانت قوانين الرومان واليونان والصين قديما تأخذ بمبدأ المسئولية الجمعية في الحالات العادية وفي بعض الجرائم التي تهز كيان المجتمع. فالقانون الصيني القديم قرر الاخذ بها فيما اذا قتل ثلاثة اشخاص من اسرة واحدة وادى هذا القتل الى شل مستقبل الاسرة من جهة التناسل. عندئذ كان يعدم القاتل ببطء. وتوقع عقوبات شديدة اخرى على افراد عشيرته. كذلك اذا قتل احد الافراد لاستخدام اعضاء جسده في اعمال سحرية فقد كان يعاقب القاتل وكل من يمت اليه بصلة. وكذا من يربي الحيوانات السامة لاستخدامها في جرائم القتل. فتقع العقوبة على جميع افراد اسرته.

وبجانب جرائم القتل هذه التي تتصف بالبشاعة، هناك ايضاً جرائم الخيانة العظمى والاعتداء على المقدسات ومخالفة الاوامر الامبراطورية والملكية، فكان يعاقب المجرم واقاربه جميعا بما في ذلك النساء والاطفال والشيوخ وكل من يعيش معه في المنزل مهما كانت صلته بهم بعيدة. وكان الجزاء يختلف بين القتل والرق والتشريد ومصادرة الاملاك والنفي المؤبد او المؤقت.

وفي المجتمعات الحديثة نلمس بعض الامثلة للمسئولية الجمعية. فمن ذلك مثلا الميل الى اعتبار الحزب او الجمعية السياسية او الدينية مسئولة بأكملها عن الافعال التي تصدر منها او من بعض افرادها او احدهم. فيحكم بذلك عليها بالحل او عدم مزاولة اعمالها لمدة معينة او بتجريدها من حقوقها السياسية او مصادرة املاكها. ونلاحظ ان العقاب هنا يقع على الشخص المعنوي. فلا يصيب الافراد بذواتهم شيئا كأن تمس اجسادهم او حرياتهم او اموالهم فالعقوبة تقع على الجمعية او الحزب كشخص معنوي الا في حالات الجرائم او المخالفات العنيفة التي تمس جوهر المجتمع ولا يستطاع السكوت عليها.

وهناك ميل عام الى اعتبار الجماهير مسئولة جنائياً عن الاعمال التي تنجم عن سلوكها العام. ولعل هذا الميل مرجعه الاخذ بفكرة «الاتجاه او التفكير الجمعي» وهي النظرية التي نادى بها علم الاجتماع وايده علم النفس الاجتماعي والتي تقول بان تفكير الجماهير يختلف عن تفكير الفرد بل قد يناقضه وهو في نفس الوقت يسيطر عليه. ففي حالة التجمهر يميل بعض العلماء مثل Mc Dougall في علم النفس و Durkheim في علم الاجتماع الى اعتبار ان شخصية الفرد وتفكيره ينصهر ويذوب في تفكير وشخصية الجماعة ويصبح مسلوب الارادة وغير مسئول كفرد بذاته عن الاعمال التي تصدر نتيجة للتكتل بل تصبح الجماعة كجمهور مسئولة جنائياً عن سلوكها العام.

وهناك مثل آخر للمسئولية الجمعية الادبية يبدو في ميل المجتمع الى اعتبار البيئة الاجتماعية مسئولة عن فساد الفرد. او النظر الى الاسرة على انها المسئولة عن فساد احد ابنائها وكثيراً ما اشارت الى ذلك احكام محاكم الاحداث ويقتصر الجزاء هنا غالباً على الاحتقار الذي يبديه المجتمع للبيئة او افراد الاسرة التي ينتمي اليها المجرم.

على ان الاديان تختلف فيما بينها في تقرير المسئولية الجمعية والاعتراف بها قوة وضعفاً فبينما نرى الديانة المسيحية ديانة الفرد ـ تهتم بالفرد كفرد وتنادي بالمسئولية الفردية المطلقة. فالفرد عندها مسئول امام الله ـ عن اعماله. وكذا الديانة الاسلامية إذ قضت نصوصها وتشريعاتها صراحة او ضمناً على المسئولية الجمعية. فاننا نرى لها مظاهر مختلفة واضحة جداً ـ بل لعلها هي الغالبة في الديانة اليهودية، والتوراة مليئة بالامثلة فما اصاب بني اسرائيل من قحط وضلال وحروب واوبئة كان مرجعها دائما خطأ اوجرم ارتكبه فرد او اسرة او نتج عن انحراف في تفكير او سلوك

جمعي . ولعل مرجع ذلك طبيعة الديانة اليهودية وظروف وجودها والاحوال الاجتماعية للشعب اليهودي فالفردية تنعدم فيها او تكاد ويبدو فيها سلطان الجماعة على الفرد وشدة الارتباط والتماسك بين افراد جنسهم واسرهم .

المسئولية الجمعية في الحالات غير العادية

سبق ان ذكرنا اننا نقصد بالحالات غير العادية حالات الخروج على القانون او النظام العام كحالات الثورات والحروب والقلاقل وغيرها .

وتبدو المسئولية الجمعية بوضوح في مثل هذه الحالات اكثر منها في الحالات العادية . ففي الشئون الحربية توقع الجزاءات الجمعية في اوسع نطاق . فكثيراً ما يقتل رهائن الحرب لجرم فردي ارتكب في بلادهم ، وكثيراً ما توقع الدولة المنتصرة عقوبات صارمة على مناطق او بلاد او احياء لمخالفة بسيطة قد تكون غير مقصودة صدرت عن احد او بعض افرادها .

وحرب البسوس التي قامت بين قبيلتي بكر وتغلب . وكادت تفني القبيلتين بسبب خطأ ارتكبه احد الافراد اكبر مثل على ذلك ، وقد بدأت الحرب ضيقة الحدود ثم اتسعت واستمرت مدة طويلة .

ولعل من مظاهر المسئولية الجمعية ما قامت به السلطات البريطانية ضد قبيلة كيكويو في نوفمبر سنة ١٩٥٢ واذاعته الاذاعة المصرية فقد حاصرت القوات البريطانية والبوليس ارضاً تبلغ مساحتها عشرين كيلو متراً وساقت اما مها اربعة آلاف رأس من الماشية واصحابها . وهدمت مساكنهم . واعتبرت هذه العملية الحربية من اكبر العمليات التأديبية ضد قبيلة كيكويو منذ اعلان حالة الطوارىء في كينيا نتيجة لثورة احدى قبائل هذه البلاد .

وعقب اعلان الدول العربية الحرب ضد اسرائيل واعلنت مصر حالة الطوارىء والاحكام العرفية حاول بعض افراد ينتسبون الى جمعية الاخوان المسلمين القيام باعمال اعتبرت في نظر الدولة والسلطات الحاكمة انحرافا في السلوك العام وادى ذلك الى ان اصدر الحاكم العسكري « النقراشي باشا » امراً عسكريا مذيلا بمذكرة تفسيرية قانونية بحل الجمعية وصادر املاكها وشل حركتها وتتبع افرادها واعتقل الافاً منهم ووضعهم في السجون بل كان مجرد ذكر اسم الجمعية يعتبر في نظر المجتمع مصدر قلق وخوف . ولا شك ان هذه مسئولية جمعية تحملت الجزاء الهيئة باكملها نتيجة لما اعتبرته السلطة انحرافاً في سلوك بعض افراد الجمعية وقتما كانت مصر في حالة حرب .

وابان الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ واصبحت مصر في حالة شبه ثورة ضد القوات البريطانية في منطقة القنال وهاجم الفدائيون هذه القوات في السويس حدث حادث كفر عبده الذي وقع عقب هجوم بعض الفدائيين على الجيش البريطاني . فقد حاصرت القوات الانجليزية حي كفر عبده في شهر ديسمبر سنة ١٩٥١ وهدمت منازل السكان وقبضت على بعض الرجال واخذتهم رهينة لتسليم الفدائيين . وتبدو المسئولية الجمعية بوضوح في هذا الاجراء . وفي تصرف السلطات المصرية قِبَل الحزب الاشتراكي المصري عقب حوادث ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ بالقاهرة ، اذ اتهمت رئيسه بتحريض الشعب على حرق القاهرة واشتراكه في هذا الفعل وقبض عليه واغلقت دار الحزب . وصادرت صحفه ومجلاته وشردت اعضاءه واعتقلت عدداً كبيراً منهم وكان مجرد الانتساب للحزب او ذكر اسمه يعتبر جريمة في نظر الحكومة كل هذا يعتبر تقريراً للمسئولية الجمعية .

وفي ثورة مصر الاخيرة ــ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ظهر اتجاه جمعي باعتبار الاحزاب جميعاً مسئولة عن فساد العهد الماضي او على الاقل السكوت والتستر عليه . وقد ترجم قائد الثورة هذا الاتجاه فاصدر امراً بحل جميع الاحزاب المصرية باعتبارها مسئولة عن فساد الحكم . وصودرت ممتلكاتها واموالها وكان هذا مظهراً من مظاهر المسئولية الجمعية وقع الجزاء فيه على جميع اعضاء الحزب بسبب فساد او اغراق بعض هؤلاء الاعضاء

وظهرت المسئولية الجمعية الادبية في اجماع الرأي العام المصري على ادانة الملك السابق فاروق على اعتبار جميع افراد الاسرة المالكة والحاشية الملكية مسئولة ادبيا عما اقترفه الملك المعزول من اعمال ضد الدستور والشعب والكرامة الوطنية . ولا شك ان هذه المسئولية وهذا الموقف السلبي الذي وقفه الرأي العام من افراد الاسرة المالكة هو مظهر من مظاهر المسئولية الجمعية الادبية عن جرائم ارتكبها الملك .

وبعد ... فهذه نماذج وصور للمسئولية تبين انه قد تتحمل احيانا هيئة او قبيلة او اسرة او دولة الجزاء نتيجة خطأ او جرم ارتكبه احد افرادها او بعضهم او نتيجة انحراف في سلوكها العام . وهذا ما اصطلح على تسميته بالمسئولية الجمعية .

القاهرة **دمياند متياس**

المراجع: 1—Fauconnet La responsabilité. 2—Westermarch: Origine et développement des idées morales. 3 — التوراة

التوجيه الفني الحديث في مدارسنا

بقلم السيدة سلوى روضة

لا تكرهوا اولادكم على افعالكم* فهم مخلوقون لزمان غير زمانكم». هذه كلمة لعلي بن أبي طالب رضي التفكير الحديث عنها،لان العاقل من عرف مدى اندفاعه ووقف وعرف متى يسلم غيره ليبتدىء هذا الجديد باندفاع جديد ، وحيوية جديدة ، تتلاءم مع الرغبات الجديدة، والعصر الجديد ، ويا ليت مدرسينا واصحاب المسؤوليات يتخذون هذا الشعار كاساس لتفكيرهم .

الفن الحديث ليس « موضة » يتبعها الفنانون عن غير اقتناع بل الفن مظهر من مظاهر عصرنا ، هو كغيره من علوم هذا العصر معقد ، وبعيد بعض البعد عن مفهوم العامة من الناس، وقل العامة لا تفهمه ، فهل يعني ذلك بطلان هـذا النوع من الفن ؟ ليس بالسهل ابداً ان يفهم عامة الناس نظرية النسبية ولا نظرية الـ Quanta المعقدة ، ولا نظرية الامكانيات ، وليس بالسهل ابداً ان يفهم الناس التجاوب الذي يبذل للوصول الى النجوم ، ولا ان يفهم الالية التي تستعمل لهذه الغاية ، والناس ان جهلوا النظريات فانهم دائما يعجبون ويهللون ويبتهلون للنتائج .. اما ذعروا من القنبلة الذرية ؟ اما ابتهجوا لاكتشاف السينما والراديو ؟ اما هللوا للطائرة ؟.. والناس ان جهلوا الفن الحديث الخالص ونظرياته فانهم دائما يعجبون ويهللون ويبتهلون لنتائجه، فلا يشترون سيارة الا موديل ٥٣ مراعين بها احدث ما توصل اليه الفن الحديث، ولا يرضون عند شراء قطعة قماش الا ان تكون Nouveauté ، وعند عمل كرسي لا يترددون عن الرجوع الى اكثر المجلات الفنية الجديدة، او عن استشارة المختصين لعمل احدث طراز وصل اليه الفن الحديث في ابتكار الاثاث.

الناس يفهمون النظريات المطبقة ، اي « النتائج » .

والناس لا يقفون دقيقة واحدة للتعمق في اساسها .

وحجة المختصين او الذين يدعون فهم الفنون بان الفن الحديث فن موقت ، فن تعددت فيه المدارس، فن طفرة لا يمت الى الحياة بصلة اذن فهو زائل ، اما الفن الكلاسيكي الذي اثبت وجوده عدة قرون، فهو ولا شك الفن الذي يجب اتباعه واتباع نظرياته حقاً ان الفن الحديث لم يمر في اختبار الاجيال لنعرف مدى صموده، وحقاً ان له ميزة القلق، والبحث، وعدم الثبوت،وهل لحياتنا العادية اليوم شبه بحياتنا العادية لخمسين سنة خلت ، او قل لعشرين سنة او لعشر سنوات ؟ نحن في حركة مستمرة وتطور مستمر وحياتنا خاضعة بحكم نظم جديدة واختراعات واكتشافات حديثة لتغير مستمر في المعيشة والتفكير،وهل كان الفن يوماً سوى ذلك الاخلاص في التعبير عن حياتنا العادية ؟ ؟

لاواقعية الفن الحديث هي التي ابعدت الكثيرين عن تذوقه، فهل يا ترى سيقف الفن عند هذه اللاواقعية ؟ .. الجواب مبهم ربما رجع الفنانون الى الواقعية المنظورة،لكن رجوعهم سيكون نتيجة اختبار وتجارب مرت جميعها من خلال تجارب العصر الذي نعيش فيه ، وليس بنظريات القرون الماضية التي بعدت عنا واصبحت منفصلة عن تجاربنا الحاضرة التي تشعل فينا تلك النار ، لتعطي انتاجاً يشع من نورنا نحن ، وبين تجارب اليوم وتجارب الاقدمين ، فروق اساسية من حيث النظم السياسية ، من حيث الحياة العادية والحياة الاجتماعية ، من حيث العلوم والانتاج العلمي ، تجعلنا ــ اذا كنا مخلصين ــ ان نرفض القـديم ، ليس لانه غير صالح ، بل نرفضه على اساس الاخلاص للشعور الصادق.

اذاً فالرجوع الى الواقعية ليس معناه واقعية مرتكـزة على النظريات الكلاسيكية المحورة ، بل الى واقعية جديدة مرت بكل نظريات المدارس الفنية التي ملأت القرن العشرين .

فاين مدارسنا والتوجيه الفني ؟ ومن هم اساتذة الفن في المدارس ؟

يعتقـد البعض ان الغرض من تعليم الفنون هو البحث عن طلبـة موهوبين ليجعلوا منهم فنانين،ليس هذا هو الغرض وليس تعليم الفنون اخراج عباقرة في الفن من المدارس، ولا اخراج تلاميذ يمتهنون الفن بحجة انهم فنانون،ان تعليم الفنون هو

> السيدة سلوى روضة فنانة معروفة ، لها اسلوبها الخاص في التعبير عن الحياة ، وفي اخراج تأملاتها على لوحات قوية . فيها قوة الالوان ، قوة الخطوط ، قوة التفكير. وقد مارست فن التصوير في باريز ثلاث سنوات ، وعادت الى لبنان تحمل رسالتها الى ابناء وطنها ، وتحث المدارس جميعا ان تعنى بالفنون ، وتأخذ بيد الطفل العربي حتى تقوده الى قمة الخلق والابداع
>
> وهذه حلقة من سلسلة أحاديث الفنانة في التوجيه الفني الحديث .

* حديث اذيع من محطة الاذاعة اللبنانية .

عرائس البحر

لمحمد مفتاح الفيتوري

•

الاسكندرية

✩

ذات مساء كأنما غُسلت سقوفهُ اللامعات بالنور !
وقفتُ بالشط مثلما وقفتْ نهاية في يد المقادير ..
والبحر فوق الفضاء منبسط كأنه كبرياء مغرور
والموج في جانبيه أجنحة بيض .. سماوية التحابير
وكان قلبي شبيه مسرجة ترجف في قبضة الأعاصير
وفي دمي الآدمي عاصفة شلت حساسيتي وتفكيري
لا شيء الا تمثال عاطفة خابي التجاليد والأسارير

***

وطار بي طائر الخيال الى كون من السحر غير منظور
مثل لي البحر شاعراً حرقت فؤاده عبقرية الحور
فأعتنق الصخر أرغناً ومضى يسرد من ذكريات مهجور
ألف نشيد .. وألف اغنية من وحي مسحورة ومسحور
مثل هدير الشلال آونة .. وتارة رقة النواعير

***

سمعتهُ تارة يحدثني كطائر في الظلام مذعور
عن غانيات نزلن شاطئه ذات مساء حي الاساطير
من كل حورية ألوهتها تسخر بالحلى والأساوير
ظللن يخلعن فيه أوشحة الضيا .. ووردية الزنانير
وبتن في حضنه بنفسجة تفتحت في اناء بللور
حتى رأين الصباح نافذة تفتح أبوابها يد النور
فطرن نحو السماء ثانية محلقات مثل الشحارير
مخلفات ما بين أضلعه مثل اناء للماء مكسور

***

وتارة عن صبية عبرت به كتنهيدة الازاهير
على شراع كأنه حلم مجسد رائع التصاوير
كأنه والرياح ترقصه اوزة في مياه هاتور
كانت تغني له اذا اتكأت بمرفقيها ليلا على السور
وكان يسقي أعماق فرحتها غناؤه الهادىء التعابير
وفي صباح بالغيم مكتحل .. معصب بالثلوج .. ممطور
ألقت الى مرفأ مراسيها وخلفته الى السمادير
ولم يزل موجه يناشدها عود اليه من البواكير

***

وتارة عن ربيع راقصة ذات قوام كالزهر مضفور
كانت إذا ما العوالم التحفت اغصان زيتونة الدياجير
جاءته مثل النسيم قافزة على بساط كالتبر منثور
عارية روحها .. معانقة خياله في اشتياق مهجور
تستلهم الموج وهو منتقل بين تثنٍّ .. وبين تكسير
ومنذ غاب الربيع .. وازدحمت جوانب الأفق بالأعاصير
لم يجد الموج من عواطفها غير كتاب في الرمل مسطور

***

واستغرق البحر في تذكره يملأ اذني بالأساطير
حتى رأينا النجوم غارقة في نهر بالضياء مسجور
فعاودته ثلوج يقظته ... وعاودتني نيران تفكيري

من ادبنا المصري الحديث

زقاق المدق لنجيب محفوظ

بقلم يوسف الشاروني



ترمع نهضة الادب المصري الحديث الى القرن التاسع عشر، الا انه ما نما وازدهر الا في اوائل القرن العشرين فلما كانت الحرب العالمية الاولى وما لها من اثر في تطور الاوضاع والعقول كان الادب المصري قد تبلور وتحدد، فظهرت فئة من الادباء تأثروا بالثورة المصرية عام ١٩١٩ وسايروا نهضة الطبقة البورجوازية المصرية الناشئة التي تشق لها طريقاً، الا ان البورجوازية الثورية نمت واخذت بمقاليد الامور في مصر واصبح لها دور رجعي، وفي ركابها سار اكثر هؤلاء الكتاب فابتعدوا عن روح الشعب التي كانوا يستمدون منها سر تفوقهم الادبي في مؤلفاتهم المبكرة.

اختفى اذن معظم الكتاب الذين ظهروا بظهور الثورة المصرية بعد الحرب العالمية الاولى وخلا الطريق، وكان لا بد لفئة جديدة من الشباب ان تحتل هذا الفراغ الشاغر. ووقعت الحرب العالمية الثانية وتأثر جيل جديد من الشباب بما حملته هذه الحرب معها من تطور سريع جديد في الاوضاع والعقول، هذا الجيل ما يزال يشق طريقه محاولا ان يحدد نفسه بين التيارات الفكرية والفنية العنيفة المتناقضة التي اشاعتها حالة القلق وعدم الاستقرار في العالم

من بين هؤلاء كاتب من انشط كتاب مصر في الفن الروائي في الوقت الحاضر، هو الاستاذ نجيب محفوظ .. تمتاز رواياته جميعاً بانها تحاول التعبير عن الروح المصرية الصميمة، احياناً طبقات المثقفين كما في روايتيه «القاهرة الجديدة» التي يعرض فيها حياة الطلبة الجامعيين، و« خان الخليلي » التي يعرض فيها حياة الموظفين، واحياناً الطبقات الشعبية الصميمة التي تعيش في احياء القاهرة المعزية كما في روايته زقاق المدق التي سنعرض لها في هذا المقال.

وسنتكلم عن هذه الرواية من نواح ثلاث، اولها القالب القصصي، ثم عرض للقصة من ناحيتها السكونية والديناميكية ثم نختم حديثنا بكلمة عارضة عن قيمة المحاولة الاسلوبية في القصة.

اما من ناحية القالب القصصي فنحن نجد المؤلف يسير على نهج القالب القصصي للأدب الاوربي من القرن التاسع عشر واوائل العشرين، فنحن نجد انفسنا امام حشد من الشخصيات يبرز واحد منها باعتباره بطلا للقصة لكنه لا ينفرد بها اطلاقا، بل توجد الى جانبه مجموعة من الشخصيات تؤثر حياتهم في البطل ويتأثرون به ويفرد لهم المؤلف فصولا باكملها، وهذا الضرب نجده مثلا عند ديكنز وتولستوي وزولا، حيث يعرض المؤلف لحادث ما ثم يتركه في الفصل الذي يليه ليعرض لحادث آخر، فاذا كان الفصل الثالث او الرابع عاد الى موضوع حديثه في الفصل الاول، وكان امامه مجموعة من الخيوط يحبكها في نسيج متماسك، وهذا عكس المحاولات القصصية التي ازدهرت في القرن العشرين لاسيما بعد الحرب العالمية الاولى وان بدأت قبل ذلك، ونجد خير مثال عند جيمس جويس في روايته يوليسيس، وفرجينيا وولف في روايتها «مسز دلادي» حيث يعرض الكاتب او الكاتبة لحياة بطله في زمن قصير قد لا يتجاوز الساعات الاربع والعشرين، كما يذكر الاهتمام حول بطل واحد، وبذلك يركز الكاتب اضواءه حول بطل واحد في زمن قصير. ولذلك قصة لا باس ان نوردها هنا، فنحن نعلم ان اختراع الكاميرا والشريط المسجل في القرن التاسع عشر قد وجهانا الى طرق اسهل لتسجيل الطبيعية، اذا كان فهمنا للفن هو انه تقليد للطبيعية على النحو الذي فهمه افلاطون وعرض له في جمهوريته. وفي الوقت نفسه كان علم النفس ينمو موجهاً ضوءاً جديداً نحو عالم غير

مرئي هو عالم اللاشعور ، وهنا وجد الفن فرصته الجديدة ، فلم تعد مهمته تقليد الطبقة الخارجية فهذا شأن الكاميرا والشريط المسجل ، ولكن وجه وجهته نحو العالم الداخلي للانسان ، وعليه ان يعبر عن هذا العالم الباطني وما يعتمل فيه من صخب وصداع ، حتى وصل السرياليون الى اقصى الطرف حين مضوا يعبرون عما تكبته في عقولنا من فزع ينتابنا بسبب ما في عصرنا من احداث وقلاقل وبهذا اصبح الكاتب يكتفي بفترة زمنية قصيرة تتارجح بين الوعي واللاوعي وبطل واحد ، ذلك لان عالماً آخر داخلياً قد انبثق امامه وعليه ان يتتبعه في دقة وعمق وبراعة وحذر . الى جانب هذا نشأ اسلوب عرض له الكاتب الفرنسي الوجودي بول سارتر في بعض قصصه ، وهي فكرة القطاع العرضي ، فبينما كان الكاتب حتى اوائل القرن العشرين يعزل خيطاً واحداً من سلسلة الحقائق المتشابكة ثم يتتبعه في الزمن الطويل وقد انتظم فيه عدة اشخاص ، نرى كتاب القرن العشرين يركزون اللحظة ويعبرون عما فيها من اكثر من حدث . فمن المعروف انه بينما يموت شخص يولد آخر ويتزوج ثالث وهكذا ، وهم يرون ان هذا التآزر الزمني اقرب الى التعبير عن روح عصرنا المزدحم بالحوادث الكثيرة المتطورة في الواقع الخارجي وفي نفس الفرد على السواء . الى جانب هذا وذاك نجد الاسلوب المعروف باسلوب المنولوج الداخلي ينتشر ويتمدد لانه اقرب الاساليب للتعبير عن هذه الزحمة في اللحظة الزمنية المتركزة . وقد هاجم الاشتراكيون هذا الاسلوب ، بل هاجموا اكثر هذه الاتجاهات باعتبارها تعبيراً عن انطواء الفرد في مجتمعات منحلة ، ومع ذلك فانني ارى اسلوب التآزر الزمني يوضح الاساس البيئي الذي تبرز فوقه شخصية البطل وهذا مما يربط بين البيئة والفرد مما يؤيد فهمهم لاوضاع الامور .

انما عقدنا هذه اللمحة السريعة من المقارنة لنعرف اين تقع زقاق المدق من الادب الغربي الحديث ، ولهذا فمن الغريب حقاً ان نرى كاتباً مثل طه حسين يكتب* قائلا بان زقاق المدق تذكرنا بمذهب الكاتب الامريكي دوس باسوس ، والكاتب الفرنسي «جان بول سارتر» ، وليس لنا من رد على عميد الادب العربي الا بان نقول ان اكثر الروايات الغربية الحديثة تبدأ من القضية على حساب الشخصية كما في روايات فرانز كافكا وسارتر والبير كامو وريتشارد رايت ، بينما نجد ان زقاق المدق ما تزال مع غالب القصة في القرن التاسع عشر حيث يوجد حشد من الشخصيات واستمرار في الزمان وتصوير يكاد يكون اميناً في تقليده للطبيعة حتى لكأن احداث القصة في بعض مواطنها يمكن قراءتها كخبر من اخبار جريدة يومية ، ولعل دستوفسكي كان واحداً من قلائل ثاروا على هذا القالب ومهدوا الطريق لكتاب اليوم .

ولعل هناك رداً على ذلك هو ان المؤلف اراد ان يصور حياة الزقاق نفسه بما فيه من خير وشر فالمقصود هو الزقاق لا هذا البطل ولا ذاك ، وهذا لا يضع من الرواية ، لانها في الواقع تنتظم في سلسلة منطقية بالنسبة للتأليف الروائي العربي عامة والمصري خاصة .

وليس لدينا من المجال هنا في التحدث بالتفصيل عن شخصيات القصة الا اننا نستطيع ان نقسمهم الى مجموعة الرجال ومجموعة النساء . اما رجال الزقاق ففيهم الجانب الذي يمثل الطيبة والخير وفيهم الجانب الذي يمثل الانحراف والشر وبطلنا عباس الحلو الحلاق بالزقاق يصطخب بين هؤلاء وهؤلاء .

فهناك عم كامل بائع البسبوسة فبصوته الرفيع الذي يمثل السذاجة والطفولة يدل على شخصيته ويرمز اليها ، اما السيد رضوان الحسيني فهو رجل يحب الخير ويزداد بصنعه رضاء وجلالا قد عقدت له ولاية الزقاق العاقلة اي الولاية التي يستمدها بحق مما يصنعه مع اهل الزقاق من صنع الجميل ، في مقابل الشيخ درويش الذي يستمد ولايته من سذاجة اهل الزقاق وطيبتهم اكثر مما يستمدها من ذاته وداخله وافعاله لانه اما ذاهل صامت ، واما مرسل القول كما يحب لا يدري اين يكون موقعه من النفوس .

الى جانب هؤلاء توجد اربع شخصيات اثارت حولها كثيراً من اللغط وكثيراً من المشاكل بسبب انحرافاتها ، فهذا المعلم كرشه صاحب القهوة تاجر مخدرات وفريسة الشذوذ الذي كثيراً ما سبب الشجار بينه وبين زوجه ، وهي امرأة قوية لا تنقصها اسباب الجرأة متى تجاوز الحد . ثم هنالك السيد سليم علوان صاحب الوكالة وهو من اغنياء الحرب نهاره نهب للوكالة وليله خال مما يتسلى به امثاله من الناس فلا قهوة ولا ناد ولا ملهى ولا شيء مطلقاً الا زوجة ولذلك تفنن في مسراته الزوجية تفنناً شذ بها عن جادة الاعتدال . والى جانب هذين الشخصين يوجد شخصان ارتبطا بمصير واحد ، احدهما زيطه صانع العاهات

* صحيفة الاهرام العدد ٢٤١٤٣ بتاريخ ٢٠ ديسمبر عام ١٩٥٢

ويقصده الراغبون في احتراف الشحاذة فيصنع لكل ما يوافق جسمه من العاهات حتى يستدر عطف الناس ، وكان يسكن خرابة تؤجرها من جعده الفران وزوجه حسنيه . وكان يلذ له ان يشاهد من ثقب الباب انهيال هذه المرأة على زوجها بالضرب حتى ينتهيا الى الصفاء . وكان مصاباً بذلك الانحراف النفسي الذي يجعله يستلذ تعذيب فريسته وهو يصنع لها العاهة . اما صديقه الدكتور بوش فكان عمله الظاهري خلع اسنان اهل الزقاق بأسعار رخيصة ، اما سبب هذا الرخص فهو ان هذه الاسنان التي يركبها انما يسرقها من جثث الموتى .

اما نساء الزقاق ، فالى جانب زوج المعلم كرشه وحسنية الفرانة فاننا نجد الست سنية عفيفي صاحبة البيت الذي يسكن « الدكتور » بوش طابقه الاول ، وهي في الخمسين من عمرها يراودها دائما امل الزواج بعد الترمل ، وكانت تستعين على تحقيق هذا الامل بالست ام حميدة الخاطبة التي تسكن ايضاً منزلها وهي ذات صوت غليظ فاذا تحدثت فكأنها تزعق وهو سلاحها الاول فيما يشجر بينها وبين الجارات من نزاع . اما ابنتها حميدة فكانت في العشرين من عمرها ، وهي بطلة روايتنا بلا منازع ، وكان غضبها مما لا يستهان به ، وكانت مصابة بذلك الشذوذ الذي يجعلها تتلمس انامل الحب خلل اللكمات والصفعات .

اما حسين كرشه شاطر الزقاق فقد نشأ مع عباس الحلو بطل قصتنا — وان لم يكن له في الزقاق بطولة — وظلا اصدقاء حتى بعد ان فرق العمل بينهما . وقد اغتنى ايام الحرب حين عمل مع جنود « الحلفاء » فرفه عن نفسه بمجاهس فائر لا يعترف بالحدود وارتاد الملاهي وعاقر الخمر ورافق النساء ، ونشبت المعارك بسبب ذلك بينه وبين ابيه . اما عباس الحلو فكان وديعاً ميالا الى المهادنة والمصالحة والمسالمة ، محافظاً على صلاته وصومه .

تلك هي الشخصيات التي ازدحم بها زقاقنا ، وهي شخصيات — كما رأينا — جمعت بين الخطيئة والقداسة . الخطيئة التي تخلقها طبيعة الحياة التي يحياها هؤلاء القوم ، والقداسة التي لا بد من وجودها للتكفير عن هذا الشر المنتشر بينهم ، وبذلك يكون هنالك توازن بين قوى الخير والشر . فالزقاق ليس الا صورة مصغرة للعالم الذي نعيش فيه ولنفوسنا ، فيه جوانب الضوء وجوانب الظلمة .

وزقاق المدق من الناحية الدينامية يتكون من خيطين لا يجمع بينهما الا الزقاق ، يمكن لكل منها ان يستقل فيكون قصة قائمة بذاتها ، فالوجود الفني للواحد منها غير متوقف بالضرورة على وجود الآخر ، انما هي رابطة التشابه والتجاوز التي تجمع بينهما . اما الخيط الاول فيتزعمه زيطه صانع العاهات والدكتور بوش . والخيط الثاني يتزعمه عباس الحلو وحميده . وشخصيات القصة تضطرب بين هؤلاء وهؤلاء . لقد كان زيطة صانعاً للعاهات ، وكأنما يريد الكاتب ان يذكرنا اننا في هذا المجتمع لا نستطيع ان نشق طريقنا ونحن صحاح ، فلا بد من وجود العاهة في جسومنا او في اخلاقنا*. ومع ذلك فان نهاية زيطه لا علاقة لها ابداً بهذا العمل الذي وقف حياته عليه ، لقد قبض عليه في ليل احد الايام وهو يسرق طقما ذهبياً من جثة عبد الحميد الطالبي تاجر الدقيق بالمبيضة ، وكان معه الدكتور بوش . وكان ذلك نتيجة طبيعية لان الحرب وهي صناعة التشويه على نطاق الجملة ، كانت قد اخذت تنافس زيطه عمل حياته ، ذلك العمل الذي كانت فيه مهارة الفنان وهوايته . وهكذا اختفى رجلان من الزقاق . وهنا نجد دور الولي الذي يقوم بالتكفير عن هذه الآثام ، فنجد السيد رضوان الحسيني يقول ليلة قيامه بالحج « ولا اكتمكم يا سادة ان شعوره بالذنب داخلني لان احد الرجلين كان يقتات على الفتات ... فلشد ما ذكرني جوعه بجسمي المكتنز ووجهي المتورد حتى استحوذ علي الخجل وغلبني استعبار ، وقلت لنفسي متقززاً : ماذا فعلت ، وقد آتاني الله خيراً كثيراً — لدفع البلاء ، او التخفيف من وقعه؟ ثم ارى الشيطان يعبث بأهل جيرتي وانا ذاهل عنه بسروري وطمأنينتي ؟... واستصرخني الضمير المعذب ان البي النداء القديم ، وان اشد الرحال الى ارض التوبة مستغفراً حتى اذا شاء الله ان اعود عدت بقلب طاهر وجعلت من قلبي ولساني ويدي اعواناً للخير في مملكة الله الواسعة » . وهكذا نرى كيف تتصارع جوانب الخير والشر في هذا الزقاق وكيف يريد كل منها ان يكتب له النصر النهائي ، فاذا وقع الشر فالجانب الخير مستعد دائما لان يكفر عنه .

اما الخيط الآخر والاهم فاننا نرى بطله عباس الحلو شخصاً قانعاً راضياً بحياته ، لولا ان عاطفة تتوهج في قلبه نحو حميده ، وحميده فتاة طموح لا ترضى بهذا الرضا ولا هذه القناعة او هي لا تحب الحلو ولا تتمناه ولكنها لا تصده ولعلها تسرها نظراته المشوقة . وحسين كرشة صديق طفولته يصرخ فيه : انت لم تولد

---

* انظر مجلة الاديب السنة الثامنة الجزء السادس صفحة ٢١ تحت عنوان زيطه صانع العاهات ليوسف الشاروني

بعد ماذا اكلت ، ماذا شربت ، ماذا رايت؟ سافر سافر ، الجيش الانجليزي كنز لا يفنى . وهكذا نجد اقرب الناس الينا هم اكثر الناس مشاركة في مصيرنا . وهكذا غادر الحلو الزقاق وان لم تغادره طبيعة الزقاق المسكينة النائمة ، فهو يغادره على ان يعود اليه ، الى اهله وفتاته ، ولم يدرك انه قد غادره الى الابد ، وذهب الى التل الكبير يقتصد شيئاً مما يكسبه في عمله بالجيش لكى يحمل الى حميده ما يرضي اطماعها وغرورها . اما حميده فقد عرض في حياتها ثلاثة رجال : اولهم عباس الحلو وقد ارتضته لانه لم يكن امامها خير منه ولهذا فما كان اسهل التخلي عنه فما اختفى عن عينيها حتى اصبح املا باهتاً ورأت في الزواج منه طريقاً الى مصير يشابه النساء الاخريات اللاتي يلدن زحمة من الاطفال يكون الطوار مأواهم . فما ان عرض لها السيد سليم عجان صاحب الوكالة ، وهو رجل كبير رب اسرة كبيرة ، حتى نسيت الحلو ، فهنا الجاه العريض وبالتالي السعادة العريضة . وهكذا لم تكن حميدة الا لتمثل جزءاً كبيراً من نساء مجتمعنا ممن علمن ان المال هو وحده الطريق الى القوة وحيث توجد القوة توجد السعادة ، وكثيراً ما تذكرنا بادريانا بطلة البرتو مورافيا في قصته « امرأة من روما » حيث يقود البطلتين في طريقهما المحتوم اسباب الرغبة والتورط معاً . وهكذا تركت حميدة الحلو - رغم شبابه - وتعلقت بالسيد سليم رغم شيخوخته ، ولو قدر للامور ان تتم على هذا النحو لما تم المصير الذي قدر على الحلو وعلى حميدة ان يسيرا نحوه فما لبث ان نزل به مرض خطير وما لبث ان عرض لها شخص ثالث ، ليس من الزقاق ولا يعرف الحلو ولكنه مجرد رجل يسعى في سبيل عمله الخاص وكان الحلو - بالنسبة له - اعتراض صغير كان السيد سليم علوان قد مهد السبيل من قبل لازاحته . ذلك هو فرج ابراهيم وعمله ان يهيء الفتيات لدور الملاهي والحانات التي يرتادها الجنود الاجانب ، وبواسطته خرجت حميدة من عتمة الزقاق الى افق الحياة اللاهية الواسعة ، فما ان عاد الحلو حتى صدم صدمة عنيفة ، ومضى يبحث عنها هائما في شوارع القاهرة حتى التقى بها فجأة ، واستطاعت ان تحول قصته عنها نحو فرج ابراهيم ، الرجل الذي خدعها كما تدعي ، واوعزت اليه ان يقتص منه وتواعدت معه على يوم تلتقي به في حانة من حانات القاهرة حيث يكون فرج ابراهيم هناك . لكن اليوم الذي تم فيه مصير الحلو لم يكن ذلك اليوم الموعود ابداً* بل تقدم الحلو في غير الميعاد المضروب ليري الحانة لصديقه حسين كرشه . وقبل ان يعم الظلام وتقع المأساة كان قد لاح بصيص من الضوء ، كان جانب الخير يكافح الى آخر لحظة قوى الظلام المجتمعة المتاهبة. كان السيد رضوان الحسيني قد اعتزم الحج وجعل يلقي نصائحه هنا وهناك ثم التفت الى عباس يطلب منه العودة الى التل الكبير والا ييأس أو يغضب . كان هذا آخر بصيص من النور بدا ، الا انه ما لبث ان خبا وتدحرج الحلو مع صديقه كرشه نحو الحانة ، وهناك رأى فتاته بين الجنود الاجانب في وضع اثار فيه ماغير مجرى حياته تغييراً جوهرياً وقاطعاً وحقيقياً لاول مرة. في هذه اللحظة حصل الحلو على قمة تحرره وكأنه يحررونا معه فخرج عن وداعته وجبنه وحرصه المستمر على حياته الرتيبة، حتى بدا امامه حسين كرشه شاطر الزقاق قزماً ضئيلا ، ذلك ان الحلو كان قد امسك بزجاجة من زجاجات الخمر الفارغة وضرب بها حميدة حتى سال الدم من وجهها ومضى يضرب بقية الموجودين الذين ما لبثوا ان تناولوه باللكمات والركلات والزجاجات حتى فقد الحياة ، ولم يكن هنالك قاتل واحد ليقبض عليه ، ذلك ان المسئولية لم تكن مسئولية فرد بل مسئولية العصر باكمله ، من صديقه حسين كرشه وفتاته حميدة الى الذين اعلنوا الحرب ومهدوا للجنود ان يكونوا بالحانة ليلة الحادث. ان موت عباس الحلو موت درامي بالمعنى التام لهذه الكلمة ، فعندما يتعادل الصراع بين الانسان والقدر تبلغ المأساة قمتها ، ولقد انتصر الحلو في اللحظة التي يبدو فيها انه قد هزم ، لقد فقد حياته لكن فقدها كما يفقدها جندي بطل ، لانه انتصر بموته على قيود الضعف والترددو الهزيمة التي كانت تشله عن الحركة.

ان نجيب محفوظ لا يورد شيئاً من هذا التفسير ، انه يسرد الحادثة مع شيء من التفاصيل يعطيها صبغتها الروائية . لكنه لا يعطيها شيئاً من التفسير الفلسفي . وقد يقال ان هذه مهمة النقد ان يفتح الاعين على شتى التفسيرات للمادة التى يقدمها لنا الفنان حتى انه احيانا ما يوضح تفسيرات لم تكن لتخطر على فكر المؤلف اطلاقاً . وهذا صحيح الى حد ما لكنه ليس صحيحاً على الاطلاق ، فلا بد من ان يكون للكاتب فكرة حملته على ان يختار هذا الموضوع دون ذاك . فالعالم مزدحم بالاحداث لكنها لا تختار منها الا تلك التي تحمل في طياتها معنى انسانياً ونحن

* انظر مجلة الأدب السنة السابعة الجزء الثاني عشر صفحة ٢٠ تحت عنوان « مصرع عباس الحلو » ليوسف الشاروني .

نبها هذا المعنى لنبرر وجودها التعبيري .

هذه النهاية الدرامية للبطل تحملنا على ذكر كلمة عن فكرة البطل عند نجيب محفوظ . فالبطل عنده في اغلب رواياته – ما عدا الروايات الفرعونية منها – شخصية ضعيفة . ونحن لا نلزم الكاتب ان يجعل بطله شخصية متفائلة قوية ، ولكننا نطالب الفنان ان يعبر عن كل جوانب الحقيقة لا عن جانب واحد منها، فنحن لانستطيع ان نتجاهل الاثر الذي يتركه دائماً نجيب محفوظ في نفوس قرائه، قصة بعد قصة، وهو اثر متشائم تحس بعده النفس بالهزيمة والهزال. وعباس الحلو مثال ذلك. ولكي نوضح المسألة اكثر نذكر بطلا آخر له هو بطل قصة السراب مثلاً – كامل رؤبة لاظ، وهو شاب عاش في احضان امه وارتبط بها في عاطفة شاذة بحيث لم يعد يستطيع الانفصال عنها ولما تزوج لم يستطع ان يتصل بزوجه بينما استطاع ان يتصل بامراة دميمة ، وتنتهي القصة بخيانة زوجه له ، ثم موتها في محاولة اجهاضها لاخفاء خيانتها ، وهنا تماماً وكما حدث لعباس الحلو في النهاية بعد تردده وضعفه المستمرين ، نجد ان بطل السراب قد قرر ان ينفصل عن امه لاول مرة في حياته قائلا لها اذهبي الى اختي او الى اخي واحسبيني منذ اليوم في عداد الاموات . ووليتها ظهري ونحيبها يقرع اذني . وهنا ايضاً نجد ان هذا التحرر لم يكن بلا ثمن، فأن امه لم تستطع ان تتلقى الصدمة ، وكانت مريضة بقلبها، فعاودتها النوبة وماتت وليس لدينا المجال لكي نحلل بطل كل رواية من روايات المؤلف ، انما يكفي ان ندرك هنا ان البطولة الفنية عنده في هاتين القضيتين هي فكرة الضعف الذي لا يريد ان يتحدى القدر ولا المجتمع ولا البيئة والظروف ، ولكنها في النهاية ، وبعد فوات كل شيء ، يحدث لها تغير فجأني ، وتكون النتيجة انها تدفع ثمناً فادحاً قد يكون هو حياة البطل نفسه كما حدث للحلو . ان العمل الفني الخالد لايهمه ان يكون بطله اميراً او شحاذاً او تكون نهايته الموت او زواجه زواجاً سعيداً . انما هو يمتاز قبل كل شيء بان يكون البطل مكافحاً. ان اسلوبه في الحياة هو الذى يعطيه القيمة الدرامية اولا وقبل كل شيء . ولهذا وحده نعجب باوديب وفاوست وهاملت ودون كيشوت ونهاية عباس الحلو .

بقيت كلمة اخيرة عن الاسلوب في زقاق المدق . ونحب ان نقول بان هناك مشكلة تواجه كتاب العرب اليوم ، فهم يتأرجحون بين اللغتين الفصحى والعامية . فالفارق بين اللغتين من الاتساع بحيث اننا نجد كاتباً مثل تيمور يؤلف مسرحية بالفصحى ثم يترجمها الى العامية . ولسنا نظن ان اللغة العربية الفصحى ستموت كما ماتت اللاتينية مثلا لا لان القرآن مكتوب بها فحسب ولكن لان انتشار المدارس من ناحية في العصر الحديث يبعث الفصحى من جديد بين جماهير الشعب وبذلك لا يتركها لقانون التطور الطبيعي الذي كانت تتعرض له اللغات القديمة ، ومن ناحية اخرى فان اختراع المواصلات وسهولتها بين البلاد العربية المختلفة خفف من حدة العامية بين طبقات المثقفين خاصة. ولهذا فان الكتاب لا يفكرون في التخلي عن الفصحى ولكنهم يواجهون المشكلة بطرق مختلفة . فتوفيق الحكيم في كثير من رواياته كعودة الروح ويوميات نائب في الارياف اذا اتى الحوار سجله كما هو بالعامية وذك جريا على عادة كثيرين من المؤلفين الاوربيين ، والمازني حاول ان يستعمل كلمات فصحى على لسان العامة بدلا من استعمال كلمات فصحى غير مالوفة ، فهو يستعمل كلمة الدكان بدلا من الحانوت والشباك بدلا من النافذة وأبوس بدلا من اقبل وهذه الكلمات تجمع بين الفصحى والالفة التي على كل لسان . ونجد كاتباً مثل طه حسين تفادى الحوار تفاديا تاما وتبرع بالتحدث نيابة عن كل اشخاص رواياته . ولما كان الاستاذ محفوظ يعبر عن الطبقات الشعبية التي لا تتكلم الا العامية ويريد التعبير عنها بالفصحى ، فقد واجهته المشكلة بالضرورة وحاول ان يجد لها حلا وسطا ، ذلك بان استعمل في اغلب حواره كلمات فصحى لكنه يعطيها التركيب العامي . مثال ذلك: حمدالله على السلامه ياس السيد – ذا يوم ابيض – والله والحسين مايساوي الزقاق من غيرك قشرة بصلة – فتك بعافية – حلفتك بالحسين الا ما جلست – استغنوا عنه يا معلم – هربت وحياتك غواها رجل فاكل فمها وطار .

هذ عدا مجموعة هائله من الامثال المصرية حتى ليذكرك دائما بالجو الذي تعيش فيه ، وقد نجح في ذلك الى حد بعيد ، ولكنه قضى على التعبير العربي الكلاسي .

لكن هذا جميعه لا ينقص من ذلك العمل الضخم ، حتى اننا اذا استطعنا ان نقول بأن عودة الروح لتوفيق الحكيم هي اعظم عمل ادبي في مصر قد انعكست فيه آثار الحرب العالمية الاولى، فاننا نستطيع ان نقول كذلك ان زقاق المدق هي اعظم عمل فني مصري قد انعكست فيه آثار الحرب العالمية الثانية.

القاهرة — يوسف الشاروني

في المنفى

من ديوان « اباريق مهشمة » تحت الطبع

✫

المسجد المهجور والليل الموشح بالنجوم
تتثاءب الاشباح في ابعاده ، ويحوم بوم
... طلل وبوم ...
ولهيب تنور تراقص في وجوم
وخيال امرأة وراء حديقة الموتى يحوم
ـ ماذا تروم ؟
« مني ومن طللي سدوم !
الشوك يورق كالصنوبر والكروم
إن باركته يد رؤوم »
ـ ماذا تروم ؟
« نعشي ستحمله الرياح مع الغيوم
عبر التخوم ، مع الغيوم »
وانا واحلامي الكسيحة والنجوم
الشوك والاموات والطلل المصدع والنجوم
نبكي ونضحك ثم يدركنا النهار
فنلوذ في ظل الجدار
عبثاً نحاول - ايها الموتى - الفرار

البوم ينعب والدروب الموحشات على انتظار ...
نبقى هنا .. يا للدمار !
البوم ينعب في احتقار
بالامس كان لنا على القدر انتصار
واليوم نخجل ان يرانا الامس في ظل الجدار
هذي القفار بلا قرار
الليل في وديانها الجرداء يفترس النهار
نبقى هنا ...؟ يا للدمار
عبثاً نحاول - ايها الموتى - الفرار
من وحشة المنفى البعيد
من مخلب الوحش العنيد
الصخرة الصماء للوادي يدحرجها العبيد
« سيزيف » يبعث من جديد
في صورة المنفي الشريد
ـ ماذا تريد ؟
« القمح من طاحونة الاسياد يسرقه العبيد »
البوم والصحراء تصرخ ، والدجى : ماذا تريد ؟
« الورد لا ينمو مع الدم والحديد »
طلل وبيد
تقضي بقية عمرك المنكود فيها تستعيد
حلماً لماض لن يعود
حلم العهود الذابلات مع الورود
كانت حياتك من جليد
ولتبق - رغم اشعة الحب المذيبة - من جليد
في وحشة المنفى البعيد
في وحشة المنفى البعيد

بغداد

عبد الوهاب البياتي

ثناءبت

بكسل ، وبدا لها المساء في الخارج من وراء ضباب خفيف . الشارع المزدحم بالسيارات وقمم البنايات المحتفظة بقية من الشمس وامواج الناس على الرصيف ورقعة الشفق الازرق وراء واجهة المقهى ، وهنالك في زاوية صغيرة ، زاوية صغيرة مظلمة من نفسها احست شيئاً ـ بموت «اوي ، هالنهار شطوله» كان اطول من نهار الشتاء ، وكله انتظار . دقائق مستطيلة عميقة مليئة بالانتظار الممل . وكانت تعبر متعبة من واحدة الى اخرى ـ ببطء شديد ـ من واحدة الى اخرى .

استرخت على الكرسي . ومدت ساقيها تحت مربع المائدة الصغيرة . كانت قد حاولت مرارا بين فترات العمل . اغمضت عينيها واغلقت نفسها واوغلت بعيداً بعيداً ولم تعد بشيء . لقد سكنت مثل سكونها في الصباح ـ خط مستقيم تحت اللحاف يداها معقودتان فوق صدرها . وقدماها دافيتان متعانقتان ومن ثم .... اوه لا تدري كيف حدث ذلك . لا يمكن لا يمكن ان تنسى مدى العمر . ولكنها حاولت بكل قواها طوال النهار ولم تعد بشيء .

العامل والجرذى والربيع

بقلم عبد الملك نوري

نظرت في قرص الساعة الصغير برهة طويلة . بعد قليل سينتهي عملها في المقهى وتعود الى البيت . وذكرت بسرعة الاخاديد المليئة بالوحل والزقاق الطويل ومجرى السيان في الوسط والنزل الذي تسكن فيه ودرجه الحجري ـ كوم من تراب وبضع طابوقات متأكلة وخرابيش اقدام حافية وطين . وكان الطين في كل مكان . في الحوش . في غرف النزل جميعها . وعلى وجوه اخوتها الصغار واطرافهم العارية وفي الزقاق وفي كل زاوية من حياة اهله . خلاله يتنفسون ومعه ياكلون طعامهم وعليه ينامون ويعيشون . وبدا لها العالم كله كتلة واحدة .. كتلة جبارة ثخينة سوداء من الطين .

اوف .. ربي « توارد اليها صوت اشبه بالشخير . هنالك رجل اشيب يحتسي الشاي وحده . التفتت ببطء . ولم يكن في المقهى نفر كثير . في الزاوية البعيدة فتى وفتاة يتحدثان بهمس . وحول المائدة المجاورة « الاستاذ » يقرأ جريدة مسائية وصاحبه يدخن سكارة ويتامل بهدوء . وكان خليل ـ عيناه شاخصتان الى الباب يتربص بالقادمين من مقعده المجاور للتلفون لينقض عليهم حال جلوسهم . كله انتباه واصغاء وحساسية غريبة .

كان انفه المفرطح وانتفاختا خديه تذكرها دائما ببعض كلاب الانكليز . رأت مرة في السينما سباقا للكلاب . وذكرت خليل .. تصورته المسكين يركض مع الكلاب وينبح معهم . تماما كانه واحد منهم . واخذت تغالب ضحكة مفاجئة تريد ان تخرج وتنفجر في سكون المقهى . اعتصرت المنديل الملون بشدة في راحة يدها وذهبت تتمايل الى الباب الزجاجي « جريدي .. ولك جريدي جيب لي الكواكب » واطلقت ضحكة طويلة رقراقة على رصيف الشارع . ارتعشت كالسعفة النحيفة . وداهمها خجل شديد . هل سمعها احد؟ لم يكن . لم يكن يليق بها ان تضحك هكذا . اخفت فمها بالمنديل وعادت مسرعة الى مكانها من المقهى . كان «الاستاذ» ينظر اليها . كان ينظر عبرها دائماً هذه الايام .. وكانه لايراها . لقد ازاح الجريدة قليلا ونظر ـ خلالها ـ لحظة خاطفة ثم عاد الى المطالعة . شد ما كانت تخجلها نظراته اول عهدها بالمقهى . كان يصوبها دائماً الى موضع ما من صدرها ولم يكد يرى شيئاً آخر منها . يجلس دائماً الى هذه المائدة التي تجاور مائدتها . ويصوب اليها بهدوء ، نظرة مستقيمة واحدة . ولقد سمعته مرة يحدث صاحبه حديثاً آلمها مدة طويلة . ونظر نحوها ثم افرج الستره عن صدره .

ـ شوف .. هيو اكبر مود يوسي اكبر ؟

ـ مو بعدها صغيرة

ـ شنو صغيرة . مو قل من سباطعش سنة . لكن هي هيجي خلقتها .

ـ لو تخلينا .....

استرسلا في نكات ماجنة لا تريد ان تذكرها . وقال الاستاذ عبارة بذيئة جرحتها بقسوة . جرحتها في الصميم وآلمتها طويلا . دهشت كيف تصدر هذه العبارات من مثل هؤلاء الافندية المهذبين . ابوها على فظاظته لم يقل لها مثلها . كان قد تمزق شيء فيها . تمزق بشدة واحدث جرحاً عميقاً . ولم تنم طوال الليل . كانت تبكي تحت اللحاف بصوت مخنوق .

قصة

وفي الصباح اهتدت الى طريقة تذود عنها تلك النظرات المستقيمة الواخزة . لقد ذهبت الى المرحاض ودست بعض الخرق في صدرها واحست بارتياح قليل . ومع ذلك لم تكره الاستاذ . لم

تكرهه قط ولم تضمر له حقداً في قلبهـا . انه يجلس هنا امام مائدتها كل مساء يطالع جريدته ويحدث صاحبه بين فترة وفترة. ولطول ما نظرت اليـه تستطيع ان تغمض عينيهـا أنى شاءت وتتخيله بكل ملامحه الهادئة الجميلة .

تثاءبت مرة اخرى وفتحت عينيهـا على الخزانة الزجاجية المليئة بالمعجنات . كان وراءها الشارع والابنية المقابلة والمساء. وكانـت قافلة طويلة من السيـارات تمتد ـ لا تدري الى اين ـ تنتظر اشـارة المرور . واعلانات الـكوكا كولا تومىء قناديهـا الـكبيرة المائلة نحو الشمس الآخذة بالرحيل . وغابة من الثمار الملونة تبدو في لمعـة الضوء الاخيرة بهجة شهيـة على رفـوف الدكان المفتوح . فكرت لو تستطيع ان تشتري شيئاً من هذه الثمار لاخوتها الصغار . ولكن لم يكن هناك ما يكفي في جنطتها الصغيرة السـوداء ولا تستطيع ان تستدين من خليل . لقد حاولت مراراً قبل ذلك دون جدوى .

بدأت اقدام وانية تتجه بهدوء نحو الباب . كان الرجل الاشيب يغادر المقهى . والنهار المتعب الطويل اوشك ان ينتهي . وارادت ان تجرب للمرة الاخيرة . في النزل . في الغرفة المستطيلة المشتركة بين جميع افراد العائلة لن تستطيع ذلك . اخوتها الصغار يتعابثون في السرير الذي يضمهم جميعاً ـ قرب سريرها . وابوها المشلول يئن في الفراش ويدمدم مع نفسه الى ساعة متأخرة . وخالتها ما تنفك تبحث في هذه الزاوية او تلك ـ شعرها المنفوش دائماً يغطي شطراً من وجهها المجعد .. وعينها المعطوبة تبلج في الظلام كحصاة بيضاء . ويخيل لها احيانا انها لا تستطيع حتى ان تتنفس في تلك الغرفة المتكاثفة ذات الهواء الثقيل .

استرخت على الـكرسي واغمضت عينيها ، وحاولت للمرة الاخيرة ، لا .. لا يمكن ، هنا ايضاً لا يمكن . كان خليل يعيد نظام المقاعد في ضجيج ، يفعل ذلك باصرار غريب وراء كل من يغادر المقهى ويثير ضجة لا ضرورة لها ثم يعود الى وصيده قرب التلفون . اوه كم تتمنى لو تبصق على وجهه المنتفخ البشع الذي يذكر ببعض كلاب الانكليز . اشاحت عنه ونظرت الى الخارج بحنق ، كان الباب مفتوحاً ، لقد تركه الرجل الاشيب مفتوحاً وذهب الى سبيله . وكان تيار ناعم لذيذ من هواء الربيع يتدفق بحيوية الى داخل المقهى . شعرت بارتياح مفاجىء عميق ، نسيت خليل . كانت يد رفيقة حنون تعبث بشعرها السبل وتمسد عنقها الطويل .. وتربت على وجهها . لقـد القت بنفسها ، القت بنفسها جميعها الى التيار البارد اللذيذ واخذت تحلم .. في الصباح بعد ان جازت مجرى السيان على طول الزقاق وانعطفت الى الشارع العريض ، خيل اليها انها دخلت في فردوس حقيقي ، الزهور الحمراء تطل عناقيدها فوق اسيجة الحدائق ، والاغصان اشبه بالسنابل الخضراء تحيطها من كل جانب ، وكفشات من الورود الملونة المتزاحمة ، واشجار اليوكالبتس الضخمة على امتداد الرصيف وزهور البرتقال البيضاء تلتمع كالنجوم في رؤوس اشجارها المتراصة بانتظام . ووراء هذا الربيع الزاهي الملون وبسط النيل الناعم الندي تشمخ القصور الانيقة العالية زاهية بنور الشمس . لقد تنفست بعمق وملأت صدرها بالربيع . كانت تريد ان تحيا حيوات الازهار جميعها ، ان تنمو وتتفتح في الشمس مثلها .. وتنتشي مثلها بهواء الربيع . ولقد امسكت زهرة حمراء ونشقتها ـ نشقت ما فيها من حياة طرية بكـل قواهـا . واشفقت ان تقطفها ، لم تـكن تريدها ان تذبل وتموت بين يديها . سارت تترنح بنشوة طاغية ، كانت حياة جديدة تدب فيها مع الربيع ، ولقد فكرت فكرت ايضاً في ذلك الحلم الذي استيقظ فيها عنـد بكورة الصباح ، وعصفت في جوانحها اهازيج سحرية . كانت تسير في حلم .. حلم واحد طويل بين حدائق القصور الباذخة . ولم تـكن لم تكن وحدها ، نفسها ممتلئة بالربيـع ، وكل شيء اخاذ جميل . ولقد خرجت في التو من احد هذه القصور ، لا بل من قصر اعظم اعظم بكثير . كانت رشيقة ساحرة ريانـة الصدر ، كانت اميرة اميرة فاتنة تنتظرها عربتها الفخمة عنـد باب القصر . وكان كل شيء اخاذا جميلا ساحراً ، وكان كل شيء كالربيع ... اوه ... ـ اوى .. شتريد ؟

فزعت من حلمها فجأة ونظرت بامتعاض ، كان «الجريدي» يعلو اربعة اشبار عن الارض .. واقفاً امام المائدة يبتسم لهـا بعينيه الصغيرتين السوداوين واسنانه البيضاء . كان كل شيء فيه يذكرها بذلك الجرذي المرح الذي شاهدته في رواية سندريللا قبل ايام .. واحبته احبته كثيراً ، قالت ضاحكة :

ـ ولك شتريد جريدي ؟ ـ موانت ردت الـكواكب ؟

وطرح امامها المجلة ، وعليها راقصة تتلوى كالافعى ، وذهب الى عمله وما تزال تتالق في عينيه تلك البسمة الساذجة المرحة . كانت قدماه حافيتين والدشداشة التي تلف جسده الصغير مشقوقة حتى البطن . اوه كم كان المسكين يبرد في الشتاء ، كان يقبع على دكة ملاصقة للمقهى مع لبادة هزيلة فوق الدشداشة ويشماغ بال يغطي به راسه ، واحياناً ينزلق اليشماغ الى اسفل ويطوق عنقه فيبدو مضحكاً جداً ، كان يساعد اخاه في بيع الصحف والكتب

واوراق اليانصيب . وغالباً ما كان يدخل الى المقهى ويمضي فيه وقتاً طويلا ليدفأ . يقف هنا امام مائدتها ، يحك قدميه المتحجرتين يمعضهما ، ويروي لها احاديث صبيانية كثيرة لا تنتهي . كان مرحاً دائماً يتراقص في مشيته ويضحك باستمرار ، كل شيء يضحكه ، ولم يشك يوماً ، وهو المسكين .. حياته ؟ ماذا حياته ؟ كلها برد وجوع وتعب ، لم تره يبكي الا مرة واحدة . اوه لا تستطيع لا تستطيع ان تنسى ذلك اليوم كأن شعلة محرقة الهبتها من راسها الى قدميها . كان اخوه يضرب به يضرب به بشدة على وجهه .. على قفاه وعلى كل موضع من جسده الصغير ، والمسكين يصرخ يصرخ باستمرار . اوه لا تعلم ماذا حدث لها ذلك اليوم ، لقد رفعه اخوه وقذف به الى الارض واخذ يركله ويدوسه بحذائه الثقيل ، ولم تدر ما اصابها . كانت تبكي في مكانها ، خيل اليها ان عظامه كلها قد تهشمت . ولم تتحمل طويلا ، اخذت تصيح باخيه وتشتمه ، ثم هرعت الى باب المقهى ودفعته بقوة . « ولك ليش ليش ليش ؟ » ولكن اخاه ابتسم لها فقط .. ابتسم كأن لم يحدث شيء . وانقلب الى عمله بكل هدوء . وبعد قليل كفكف الجريدي دموعه وجاء اليها مرحاً يتراقص في المشي كعادته واخذ يحدثها عن اوراق اليانصيب ، كان قد باع يومها خمس بطاقات فقط واضاع عشرين فلساً ، لا يدري كيف فقدت منه . لم يشتر بها شيئاً ، « والله لم يشتر بها شيئاً . ولكن اخاه لم يصدقه . ولذا انهال عليه بالضرب وهو كثيراً ما يضرب به في البيت وكذلك امه ... لسبب ولغير سبب ، « آخ لا نعل ابوهم لابو والدينهم » قال ذلك وضحك ضحكة قصيرة مرحة وبانت اسنانه الدقيقة البيضاء ، ولم يبد عليه انه كان متألماً ، ولكنها هي تالمت .. تالمت بشدة ، هذه الحياة الغضة تتبدد هكذا في الطرقات . وذكرت اخوتها الصغار وارجلهم الحافية ووجوههم المتسخة واحست شيئاً يتمزق في داخلها ويترك جرحا عميقا يدمى يدمى باستمرار . لقد اركأت راسها الى الخزانة الخلفية واخذت تبكي بصمت وتمسح الدمع المنساح على خديها بين فترة واخرى ، ولم يهتم بها احد . كانت تلتقط المعجنات من الخزانة وتزنها وتبيعها للزبائن وتلفها بالورق، تفعل كل ذلك بصورة آلية غير واعية وكأن فتاة غيرها تقوم بالعمل ، وكانت تبكي بصمت كلما تركت لنفسها . ولم يهتم بها احد . لم يهتم بها احد غير الجريدي . جاء اليها بعد جولة في المقهى ووقف امامها واجماً ، كان الم عميق يطل من عينيه الصغيرتين ، ولم يدر ما يصنع ، بدا كأنه خجل من شيء ما ، من خطيئة اقترفها ولم يدر ما هي ، وأخيراً تمتم بين اسنانه البراقة « ليش عيني .. ليش تبجين ؟ » عيني اوه .. كم ودت ان تضمه الى قلبها وتقبله طويلا وتغمره بكل ذلك الحنان الدافق في كيانها . انه الانسان الوحيد في كل هذا العالم . الانسان الوحيد الذي يتعاطف معها ويشاركها احساسها ويتالم من اجلها . لقد مسحت الدموع وربتت على خديه المتسخين وابتسمت له . كادت ان تعانقه بابتسامتها . وسرعان ما اطمأن قلبه الصغير وفرح واظهر اسنانه الدقيقة البيضاء . ثم ذهب يتراقص وعاد اليها بكوم من المجلات والروايات البوليسية ـ وضعها امامها . وعندما غادرت المقهى ذلك المساء . ناولته قطعة كبيرة من الحلوى . دفعت هي ثمنها .. ثلاثين فلساً . ونبض في داخلها شعور غريب . شعور طاغ بالسعادة والفرح .. الفرح المجرد الذي لا تشوبه شائبة بؤس . لقد شاهدت الجريدي يتراقص على الرصيف . وهو يأكل الحلوى ويقوم بحركات مضحكة يريد ان يثير بها حسد اخيه الاكبر . وعادت الى البيت ذلك المساء وكأنها ريشة خفيفة مرحة تطير في مهب الريح .

نظرت في الساعة . بعد دقائق قليلة تغادر المقهى . اضوء في الخارج كذوب الشمع ينساح على السيارات الخاطفة ووجوه الناس وواجهات المخازن المقابلة . وتبدو غابة اثمار في الدكان المفتوح مظلمة مزدحمة بعذوق الموز المدلاة من السقف . ولم تعد رؤوس قناني السكوكا كولا تومي الى شيء . فقد غابت الشمس وراء الابنية العالية ، ولم تبق منها سوى اثارة خابية في جلد السماء البعيدة . وكان شيء فيها يهمد يهمد ويتثاقل ويموت . « اوف .... ربي .. »

قرقعت الجريدة المسائية بيد الاستاذ . وحضر الجريدي مسرعاً مفتر الشفتين . تناول اجرة المطالعة وتولى مسرعاً ايضاً نحو الباب . ـ ولك جريدي .. تعال .

قالت ذلك بصوت اعلى من المعتاد وخجلت في التو . ها ؟ شتريدين ؟

جم مرة كلت لك كول نعم من واحد يصيحك .. لا تقول ها ؟ ونظرت من تحت اهدابها الى الاستاذ باستحياء .

ـ زين شتريدين ؟ نعم نعم نعم نعم نعم .

ابتسمت وربتت على وجهه المدور الصغير باناملها الطويلة . وناولته المجلة . هسه ماكو وقت . باجر اقراها .

باجر زين . نعم نعم نعم نعم ... باجر .

وانفلت متراقصاً ضاحكا الى دكته الصغيرة فوق الرصيف . وجلس عليها في نشوة تامة . ونهض الاستاذ وصاحبه وغادرا المقهى . واخذ خليل يعيد تنظيم المقاعد حول المائدة المجاورة

ويثير ضجة صاخبة . واحست بوحشة غريبة كمن غادر وطنه الى بلد بعيد . لقد حاولت ..حاولت طوال النهار دون جدوى. والان ستعود الى البيت – الى الطين والى الغرفة المشتركة التي يختنق فيها كل شيء ، هي واحلامها وحياتها الطرية المتفتحة مع الربيع.

نظرت الى صدرها واخذت تعدل من الخارج وصع الخرق المدسوسة فيه ثم مسدت شعرها السبل امام زجاجة الخزانة الخلفية. وتساوت الجنطة الصغيرة التي تشبه جيب بدلتها الاخرى .. وغادرت المقهى بخطى وئيدة . اضواء النيون تخفق فوق رأسها منداحة في ظلال المساء الفضية . والسيارات تزدحم في الشارع والزحام الكثيف يقف النفس .هبطت الى الشارع مرة ثم عادت الى الرصيف .ولم تعد تتمايل في مشيتها.حشود متراحمة من الناس تتدافع . ومكائن الباصات الساخنة الكبيرة تلهث في المواقف . وبعضها يطلق صرخات وحشية طويلة عند الوقوف.

الهروب.كانت تريد الهروب باقصى سرعة من الشارع الذي يجري كالنهر حديداً حامياً وأجساداً لزجة وضوضاء . وكانت تعتصر المنديل والجنطة الصغيرة بشدة في قبضة يدها.. وتسحب خيطها الرفيع من الطريق بين الخيوط الكثيرة الملتفة على بعضها امتلأت نفسها هديراً صاخباً وخطر في ذهنها منظر سريع من احد الافلام – الوف من الاسماك الفضية الصغيرة تلبط في الشباك ثم تفرغ منها على ظهر سفينة صغيرة تقف وحدها وسط اليم الواسع .. والامواج المزبدة الزرقاء تتلاطم على جوانبها . ادمجت نفسها في المنظر بغموض . كانت هي السفينة المستوحدة. واليم – امواج الناس والدكاكين والسيارات واضواء النيون . فعلت ذلك دون ان تدري.ولقد اجهدها المسير الملتوي وهدير الشارع .. فاخذت تدفع الناس بقبضتها الكزة الندية .. وتتقدم خطوة صغيرة بعد خطوة صغيرة .

تنفست بعمق عندما وجدت نفسها في الساحة المدورة . رفعت عينيها الى السماء .. الى الشفق الازرق الغامق . ونشقت مراراً ارج الربيع الذي يهب عليها من حديقة الساحة . كانت تتخلص رويداً من عناء الزحام وتمتلئ رويداً بحبوات الورود الزاهية المنتصبة على سيقانها القصيرة داخل بساط من الثيل الناعم المبتل . وعندما خلفت الساحة وراءها .. كان في نفسها شيء من خصب الارض وشذاها المنعش .. بعد مطر ثقيل .

احست براحة وانطلقت في شارع آخر خف فيه الزحام . جازت بسرعة عواميد الكهرباء والمقاهي المنتشرة فوق الرصيف وباعة الفشافيش القابعين وراء مناقلهم الخابية .في فضوة صغيرة بين المقاهي . كانت عنجلية من النار الحمراء حولها بضعة رجال عراة السيقان يسكفون السمك . لقد حملت هذا المنظر معها برهة طويلة . ذكرت نزهة صيفية في جزرة بعيدة . شريط من الماء يلتمع تحت اشعة القمر . بضعة قوارب مربوطة الى ساحل الجزرة . وهنا وهنالك عنجليات النار وخلايا الناس والسمك المسكوف .. والرجال حوله يضطربون بسيقانهم العارية . كانت صغيرة جداً.عندما اخذهم عمها يوسف الى جزرة الكاورية . وكانت امهاما تزال حية وابوها لم يقعده المرض بعد . كان ذلك في ماض بعيد جداً .. يبدو كالحلم العابر وكان عمها يوسف لم يهاجر الى الهند بعد .. وتقطع اخباره عن العائلة كل هذه الاعوام الطويلة لا يعرف مصيره لا يعرف اهو ميت ام ما يزال حتى الان من الاحياء .

مضت تحمل هذه الذكرى الى مدخل الشارع العريض ، هنالك شعور اخذ يثقل عليها، احساس بالتعب وبالتذمر اليائس من شيء ما. بعد قليل ستغيب في عتمة الزقاق الموحل ، وتجري مع مجرى السيان .. وتلطش كقطعة من الطين اللزج في زاوية من الغرفة المزدحمة . ذكرت قطعة الباسطرمة المعلقة الى جانب صورة جدها المهترئة، والبريمز الموضوع عند الباب ورائحة النفط التي تملأ الغرفة في الصباح .. وشتائم ابيها التي يوجهها ابداً الى امها المتوفاة ، ورائحة العفونة والاحذية والعرق والملابس النتنة في الليل ، ولم تكن هناك نافذة ، فقط كوة صغيرة في السقف يمر منها بعض الضياء اثناء النهار ، وهواء الغرفة ثقيل، ثقيل مظلم يطبق على صدر المرء ويكاد يخنقه في كل لحظة. « اوف ربي .. ليش ليش .. ؟ »

مضت تنساب في الشارع العريض . لقد فاجأها السكون المنبعث من الاشجار المتكاثفة في الظلمة ، ومن اضواء النيون البعيدة وجدران القصور البيضاء. وسارت دون ان تفكر .كانت خالية خالية من كل شيء ، في الشارع نفر قليل ، واضواء السيارات تخفق في عينيها بين لحظات متباعدة ، والاشجار الضخمة ترقبها بصمت.والسكون الاجوف العميق يمتص نفسها باجمعها ، اشباح مسرعة مرت تحت الاشجار المظلمة ، وتلاشى وقع اقدامها على امتداد الرصيف ، واخذت نسمة لطيفة تحرك الاغصان المطلة من فوق اسيجة الحدائق . ورقد فيها رقد كل شيء ، هدوء ، وسلام حزين صامت ، وسكون ينفذ عميقاً عميقاً وينتشر في داخلها، وتسير في حلم ، حلم طويل فارغ اشبه بالهواء لا تدري كيف افاقت، كانت برهة صغيرة صغيرة جداً تركتها

وراءها ، ولم تبلغ بعد منتصف الطريق ، لقد وقفت سيارة امام احد القصور ونزل منها بضعة رجال ، وبعد خطوات اجتازت جمهرة من الخدم وسواق السيارات، واضواء النيون كانت تختنق في حديقة القصر الخضراء، ربما كانت عندهم وليمة. طالما فكرت في الناس الذين يعيشون وراء هذه الجدران الصقيلة ، وكانت تنهض في ذهنها دائما ابراج وقلاع اقطاعية كالتي تشاهد في الافلام التاريخية ، رجال ونساء يتحركون مثل الدمى .. يشربون ويأكلون باستمرار . ويغلفهم الحرير من كل جانب ، وعلى مدى الاعوام تتكون داخل الابراج نسج من الحكايات الممتعة الغريبة مثل اساطير الف ليلة وليلة ، ذكرت فلم حرامي بغداد.. وشارع الرشيد المزدحم بالسيارات .. ووجه خليل المنتفخ. لقد توقعت ان يلتفت الاستاذ نحوها عندما غادر المقهى . لا تدري لماذا . ولكنه لم يلتفت . مضى على الرصيف باستقامة كما يفعل كل يوم.. وماتت الابتسامة التي هيأتها على شفتيها ، وعندما غادرت المقهى كان الجريدي قابعاً على دكته الصغيرة وقد وضع رجلا فوق الاخرى كأنه شخص كبير محترم... وكان يصفر لحناً بين اسنانه البراقة الدقيقة . وتذكرت في الحال ذلك الجرزي المرح الذي شاهدته في رواية سندريللا واحبته احبته كثيراً، ذهبت الى السينما قبل ايام مع ماري ، وشد ما احبت سندريللا ، لقد بكت من اجلها وفرحت من اجلها ، وكانت سعيدة سعيدة جداً عندما اقترنت سندريللا بالامير دون ابنتي ابيها القبيحتين . بقيت في الفراش مدة طويلة تجتر الفلم منظراً منظراً ، وعاشت منذ ذلك اليوم مع سندريللا ، اوه كم كانت تريد ان ترى الفلم مرة ثانية ، ولكن الاسبوع مضى وعرضوا فلماً آخر، وهذا الاسبوع ايضاً لا تستطيع ان تذهب الى السينما . المرة القادمة يجب ان تدفع هي عن ماري ، عيب ، دفعت عنها مرتين ، وليست مثرية ، عاملة مثلها تشتغل في احد المخزن وتسكن في نفس النزل .

توقفت واصغت في السكون العميق، شيء مثل شعورها ذلك الصباح يتدفق في داخلها بهدوء ، انه آت ، انه آت في الحال ، وفرحت بشدة، اضواء النيون تماوج من بعيد، وزهور البرتقال البيضاء تتلألأ كالنجوم في الغابات المظلمة ، والابراج العالية تشمخ ساكنة على جانبي الطريق . انه آت انه آت الآن... نسمة رقيقة ، حفيف الاشجار ، وشذى القداح يملأ الفضاء ، واحلام النيون الفضية في الحدائق الخضراء ، وضعت يدها على قلبها ، واغمضت عينيها ، وجمدت في مكانها . موسيقى جميلة انبعثت برفق من عالم آخر، ورفرفت حولها عصافير ملونة حبيبة تزقزق بالحاح وتغني « سندريللا افيقي ، سندريللا افيقي ، سندريللا » افاقت وكانت تعلم انه هناك ينتظرها عند باب القصر .. الامير الجميل يدللـه الموشاة ذات الاوسمة الذهبية والشرائط السرمة، والعربة كانت هناك ايضاً ... العربة الفخمة التي صنعتها الساحرة تلك الليلة بضربة من عصاها السحرية ، اوه لم ترد ان تفيق ، لم ترد ان تفيق في الصباح ، لقد سكنت تحت اللحاف كالخط المستقيم . يداها معقودتان على صدرها وقدماها دافيتان متعانقتان ، ولم تكن تريد ان تتحرك ، هو هناك ينتظرها في الخارج ، ينظر بين لحظة واخرى الى نافذتها العالية ، لقد نفد صبره ، وتطل عليه من النافذة وتلقي له قبلة في الهواء ، وتعود لترتدي حذاءها الزجاجي الشفاف . فرح فرح هائل عظيم يلهب كيانها كله . والعصافير الملونة الحبيبة « سندريللا افيقي ، سندريللا ... » والعصافير الحبيبة تطير في جو الغرفة وتملأ العالم كله بغنائها المرح السعيد . وهي ساكنة تحت اللحاف . لا تريد .. لا تريد ان تنهض من الفراش.

« هذي المعجبة ما ما كن قعدت بعد؟» لم تسمع في البداية . لكنها ذكرت هذه الكلمات اثناء النهار . ذكرتها في المقهى بوضوح شديد . وبعد لحظة كان ابوها يزعق بصوت عال «ولك بهيجة قومي .. قومي دروحين على شغلك » وخالتها ـ شعرها المنفوش وعينها المبلجة كالحصاة ـ منتصبة عند حافة السرير .. تهزها بشدة من كتفها . فر الحلم واختفت العصافير . وذهب الامير والعربة وكل شيء . اوه عبثاً عبثاً تحاول مرة اخرى.

خالتها وعينها الوحيدة الحمراء . ابوها والمقهى ... وخليل. والغرفة المستطيلة المظلمة . هذا كل شيء . هذه كل حياتها . وبعد قليل ستجتاز مجرى السيبان في الزقاق الضيق . وتبلغ الدرج الحجري المنهار ـ تراب وطابوكات متآكلة وخرابيش اقدام .. وطين طين طين . طين لزج كثيف في كل مكان .

« اوف ربي .. ليش ليش ليش ؟ »

اتكأت على سياج حديقة احد القصور . واخذت تهتز بنشيج عنيف . « ليش ليش ؟ ربي ليش ؟ »

وكانت هبة من هواء الربيع تعبث بشعرها الطويل المسبل على كتفيها ، والشارع العريض هادئاً تجثم على جانبيه قلاع وابراج غريبة تنسج اساطيرها في الظلام ، والاشباح المسرعة تحت الاشجار .. يتلاشى وقع اقدامها بعيداً بعيداً .. على امتداد الرصيف.

بغداد **عبد الملك نوري**

ظلال ... ورمال

☆

يا شقي الفـؤاد أنت على الارض شقي معـذب متهـالك
قد عبرت الزمان في ميعة العمر فأين المصير من كل ذلك ؟
أينما سرت فالحياة صراع أبدي كأنه بعض حـالك
إن سلكت اليسار كنت يميناً واليمين اليمين حول شمالك
ورحاب الوجود لو كنت تدري ضيقات معربدات المسالك
ليس في الارض يا شقيّ فؤاد فيه خفق لمن همو في مثالك
رحت كل الحياة تبعث في الكون جلالاً ونشوة من خيالك
وتذيب الحنان في خمرة الكاس وتحنو على الهـوى بظلالك
وتغني اذا الرياح تنضّت كالأزاهير والرؤى في خيالك
قد زفت الجمال من كل شيء فيك حتى غدوت عبد جمالك
في نسيج الأحلام بتّ أسيراً مستهاماً مصفّداً بحبالك
يا شقي الفؤاد من أين تمضي والظلام الكثيف حولك حالك
أين تمضي مع الزمان وتغدو بين همّ وبين وهم خيالك
كل هذا الوجود حلم ثقيل يستوي فيه مالك ـ غير مالك
وعروش من الجماجم سارت في ركاب من الخنا وممالك
ليس في الارض غير جهل مرير وشقـاء وحيرة ومهالك
أين تمضي ـ ألا تخط ضريحاً لك فيها وترتمي فوق آلك ؟
أين تمضي ـ أما كفاك عذاب ؟ يا شقي الفؤاد إنك هالك
عجباً !! أنت في الوجود شقيّ تعس القلب صائر لمآلك
لست تدري ان كنت تسلك ليلاً أم هو الليل في شعابك سالك
وسواء جهلت يا صاح هذا أو علمتَ المحظور من كل ذلك
فالحيـاة الحياة تزأر كاليم وتعلو على فتـات رمـالك

الخرطوم عزيز اندراوس

في طريق الميثولوجيا عند العرب

بقلم محمود الحوت

استاذ في العلوم

الباب السادس : تابع الفصل الثاني

طسم وجديس

ان لم تكن هاتان القبيلتان شقيقتين١) فهما تقريباً أبناء أعمام٢). وعلى كل فهما تنتسبان الى «نوح» مثل «عاد» و«ثمود» عن طريق «ارم» و«سام»

ولا بأس من وضع سلسلة توضح حلقاتها نسب هذه القبائل التي تكتنفها الخرافات من كل جانب، نستمدها من ابن قتيبة٣) ونرسمها على الوجه الآتي :

نوح
سام
ارم
لاود عوص جاثر
عاد ثمود
عمليق طسم جديس
جرم قحطان
يعرب

وكما اعتاد المؤرخون ربط عاد وثمود وحوادثهما متقفين ذكر القرآن لهما معاً، كذلك اعتادوا ان يربطوا بين «طسم» و«جديس» اللتين لا تكادان ان تذكرا الا معاً، لا بل انهما بخلاف عاد وثمود قد عاشا في زمن واحد، ومكان واحد، واقتسما اسباب الحياة، فتاريخهما او بالحقيقة أساطيرهما لا تكاد تنفصل لوثيق العلاقات بينهما.

ولقد ورد لطسم وجديس ذكر في جغرافية بطليموس، فلا سبيل الى القول بانهما لم يكن لهما وجود وكيان. ويقال ان حوادثهما، كما يرى Caussin de Perseval قد امتدت حتى اواسط القرن الثالث للميلاد١)

وتلخص الروايات عن طسم وجديس بانهما كانتـا قبيلتين تسكنان اليمامة «جو» وما حولها الى البحرين. وحدث ان تملكت طسم حتى حكم رجل منهم يقال له «عمليق». وقد تمادى في الظلم الى ان تنازعت امرأة من جديس يقال لها «هزيلة» وزوجها على غلام لهما. فخاصمته الى زعيم طسم الذي ما كان منه، بعد استماعه الى اقوالهما، الا ان امر بان تباع هي وزوجها فتعطى عشر ثمنه، ويعطى خمس ثمنها، وأمر بالغلام ان ينزع منهما ويجعل في غلمانه وهكذا استرقوا جميعاً، فغضبت المرأة وانشأت أبياتاً سمعها عمليق فأثارت غضبه. وعندئذ امر ان لا تزف بكر من جديس حتى تساق اليه فيفترعها قبل زوجها.

وذلت جديس زمناً حتى تزوجت اخت سيد جديس «الاسود ابن غفار» وكانت تسمى «عفيرة» ويقال لها «الشموس». فلما دخلت على عمليق امتنعت، الا انها خرجت اخيراً من عنده بدماء العار شاقة ثوبها ومارة بأخيها وهو في جمع من قومه تندب وتنتحب وتنشد الاشعار حتى نكست رؤوسهم خجلا وذلة، وألهبت نفوسهم غضباً وحمية.

وتفتقت الحيلة لاخيها «الاسود» بعد ان سارعت جديس الى طاعته، فقال لهم : قد رأيت ان اصنع للملك طعاماً ثم ادعوه وقومه فاذا جاءوا يرفلون في الحلل قمت الى الملك وقتلته، وقام كل واحد منكم الى رئيس من رؤسائهم، حتى اذا فرغنا من الاعيان، لم يبق للآخرين قوة.

ونهتهم الشموس عن الغدر رغم الحادث الجلل، فلم يأبه الأسود، وصنع الطعام في ظاهر البلد، ودفنوا السيوف مشهورة تحت الرمال. وجاء الملك واعيانه، فلمـا جلسوا للاكل وثب الاسود على عمليق فقتله، ووثب كل رجل على جليسه من

١) صفحة ١٤ ـ كتاب المعارف لابن قتيبة، جوتنجن ١٨٥٠
٢) صفحة جـ ـ السيرة لابن هشام
٣) صفحة ١٣ ـ ١٥ : كتاب المعارف

١) ص ٩٩٢ م ١ : Enc. of Islam

رجال طسم حتى ابادوهم .

وهرب رجل من طسم يقال له رياح بن مرة حتى لحق مع بقية ضئيلة من طسم بـ«حسان بن تبع» الحميري، فاستغاثه على جديس، فاجابه الى طلبه ، وبعث بجيوشه [ويقال سار بنفسه] الى اليمامة.

ولما كان على ليلة من منازل جديس استوقفه «رياح» وقال له ان له اختاً متزوجة في «جديس» يقال لها «يمامة» ترى الشخص على مسيرة يوم وليلة ، وهي ابصر خلق الله على بعد .. فخشوا ان تراهم وتنذر بهم القوم ، فأمر الملك رجلا ان يصعد الجبل فيكشف امرهم ، فابصرته «زرقاء اليمامة» – وهي زرقاء العينين – وانذرت به قومها بعد ان اخبرتهم بماذا يصنع فوق الجبل ، فكذبوها .

وطلب رياح من الملك ان يأمر اصحابه فيقطع كل رجل شجرة ويسير بها امامه ، وهكذا كان حتى اذا دنوا من اليمامة ليلا ، نظرت زرقاء اليمامة فابصرت القوم، وانذرت بهم جديساً فكذبوها ثانية ... وصابحهم «حسان» بحمير فأبادهم وخرب بلادهم ودك حصونهم وقصورهم ، وقبض على زرقاء اليمامة وقلع عينيها فرأى عروقها محشوة بالاثمد ... وهو حجر اسود كانت تدقه وتكتحل به، فهي اول من اكتحل بالاثمد من العرب.

وفر الاسود بن غفار واخته الشموس ومعه نفر من قومه ولحق بجبلي «طيء» قبل ان تنزلهما «طيء» – وكانت تنزل الجوف من اليمن – فنزل هناك . ورجع حسان الى بلاده بعد ان اطلق على «جو» اليمامة تسمية لها بالتي كانت ابصر خلق الله على بعد، والتي ضرب بحدة نظرها المثل فقيل : «أبصر من زرقاء اليمامة» ١)

جرهم والعماليق

ومن بين الشعوب العربية البائدة يذكرون «جرهم» التي سكنت ، كما يقول ياقوت ٢) تهائم اليمن ثم لحقت بمكة ، ونزلت على اسماعيل الذي نشأ فيها وتزوج منها . وقد مر حديث نزولها حوالي مكة ، فلا مجال لاعادته .

ومن بينها ايضاً «العماليق» الذين كانت منازلهم موضع «صنعاء» ثم خرجوا فنزلوا ايضاً حول مكة ، ولحقت طائفة منهم بالشام ومصر وتفرقت طائفة منهم في جزيرة العرب الى

١) يراجع للقصة : تاريخ الطبري ص ٧٧١ – ٧٧٥ ج١ . الأغاني ص ٤٨ – ٥٠ ج ١٠ . كتاب المعارف ص ٣٠٨ . الميداني ص ٩٣–٩٤ ج١ الكامل في التاريخ لابن الأثير ص ٢٥١ – ٢٥٤ ج ١ وغيرها .
٢) ص ١٠٢٨ ج ٤ معجم البلدان

العراق والبحرين الى عمان ١) . ولا يكتفي «ابن قتيبة» بمصر والشام ، وانما ينسب اليهم قسماً من ملوك فارس وخراسان ٢) وكذلك ينسبون لهم شعوباً قديمة جداً كالكنعانيين والفلسطينيين ٣) ولهذا يطلقون على سكن ديار الشام في الزمن «الجبارين» . قال ابن عباس ذاكراً أريحا في غور فلسطين : «اريحا قرية الجبارين . كان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة ورأسهم عوج بن عنق» ٤) .

عوج بن عناق

وجميل ما يروونه عن عوج وامه عنق او «عناق» :

لقد كانت امه احدى بنات آدم لصلبه ... هائلة مخيفة ... كل اصبع من اصابعها ثلاثة اذرع في عرض ذراعين ... وفي رأس كل اصبع منها ظفران حديدان مثل المنجلين ... وكان موضع جلوسها جريبا من الارض ... وهي اول من بغى على وجه الارض ، وعمل الفجور والسحر ، وجاهر بالمعاصي ... ولهذا ارسل الله عليها اسوداً كالفيلة، وذئاباً كالابل ونسوراً كالحمر فقتلوها ... واراحوا الارض من شرها !!

ولدت عوجا – رحمه الله اباها – فكان يحتجز السحاب فيشرب منه ، ويتناول الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس ، ثم يأكله ! وعمر حتى ادرك الطوفان الذي طبق الارض وعلا رؤوس الجبال ، فما جاوز ركبتيه ! لا بل انه طلب السفينة ليغرقها !!

وامتد به العمر حتى ادرك موسى الذي لما استقر لقومه الامر بمصر امر ان يرتحلوا الى اريحا ، قرية الجبارين الذين سموا بذلك لامتناعهم وطول قاماتهم وقوة اجسادهم ، وهم كما ذكرنا من العمالقة وبقية قوم عاد .

واختار موسى اثني عشر نقيباً من كل سبط من اسباطهم نقيباً ، وبعثهم لما قربوا من المدينة يتجسسون اخبار قومها فلقيهم عوج وعلى رأسه حزمة من الحطب فوضعهم فوقها – او في كمه ! – وسار الى امرأته ، ونثرهم امامها يريد طحنهم، فقالت امرأته بل خل عنهم حتى يخبروا قومهم فتركهم كما طلبت منه .

ثم ذهب عوج الى الجبل وقور صخرة على قدر معسكر موسى ، وحملها ليطبقها عليهم ، فبعث الله هدهداً فنقر الصخرة ونزلت من رأسه الى عنقه فمنعته الحركة ... ووثب موسى وقومه فجهزوا عليه !! ٥)

١) نفس المصدر ٢) ص ١٤ كتاب المعارف ٣) ص ٣ Nicholson
٤) ص ٧٠ ج ١ – تاريخ الخميس في احوال أنفس نفيس ، لحسين الديار بكري ، طبعة مصر ١٣٠٢ ٥) ٧١ – ٧٢ نفس المصدر

الفصل الثالث

اساطير العرب الباقية

وللعرب الباقية من قحطان وعدنان اساطير وخرافات غير التي اعتدناها من احداث العهد القديم ، وهي تتعلق بازمان ليست جد بعيدة من العصر الجاهلي المعروف ، او المدة التي نعبر عنها احياناً بما قبل الاسلام . وليس لنا في هذا المقام الا ان نختار من بين هذه الاساطير بعضاً مما كثر ذكره في الجاهلية. ولا بأس هنا من الكلام عن سد مأرب ، والقصور المشهورة في الادب العربي ، وحادثة الفيل ، واخيراً ايام العرب .

مأرب

قبل ان نتحدث عن سد هذه البلدة وخرابه ، نحب ان نشير الى مادة مأرب لـ « ادولف جروهمن » في الموسوعة الاسلامية ١) فهي بحث شيق وخصوصاً مـا تناول الكلام عمن زار هذه المدينة . كارنود ١٨٤٣ Th. J. Arhaud ، وهاليفي ١٨٦٩ F. Halévy وغلازر ١٨٨٨ E. Glaser وعن اقوال هؤلاء واحكامهم ولقد احاط جروهمن باطراف البحث ، واستوفى الاطلاع على مآخذه القديمة والحديثة .

اما نحن ، بكلمتنا هذه ، فلا نطرق الا ناحية واحدة نفتش عنها في ذخائر الادب والتاريخ وغيرها من الكتب .

« لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور . فاعرضوا فارسلنـا عليهم سيل العرم و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ، وذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور . وجعلنا بينهم و بين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليـالي واياماً آمنين . فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا ، وظلموا انفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور »٢) .

والجنتان ، كما يقول الهمذاني ، عن يمين السد ويساره ٣) ولا شك في ان مـا جاء في القرآن ، وما قاله الهمذاني الذي وقف عـلى حقيقة مأرب في زيارته لتلك الاماكن هما اوثق الاخبار القديمة عن هذا السد ، واكثر مطابقة لوصف من

١) ص ٢٨٠ جـ ٣ Enc. of Islam
٢) القرآن الكريم س ٣٤ آية ١٤ ـ ١٩
٣) ص ٥٢ جـ ٨ ـ الاكليل للهمذاني

ذكرنا من النقابين وغيرهم ممن اكتشفوا آثار الخزان المشهور.

ولقد حدث من شاهد مأرب ـ على ذمة ياقوت ـ فقال عن السد : « هو بين ثلاثة جبال ، يصب ماء السيل الى موضع واحد ، وليس لذلك الماء مخرج الا من جهة واحـدة ، فكان الاوايل قدسدوا ذلك الموضع بالحجارة الصلبة والرصاص فيجتمع فيه ماء، عيون هناك مع ما يختص من مياه السيول فيصير خلف السد كالبحر ، فكانوا اذا ارادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك بقدر حاجتهم بابواب محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه اذا ارادوا »١) .

ومما يلاحظ ان هنالك اختلافاً في الكتب التـاريخية على باني السد ، غير اننا لا يهمنا ما اذا كان بانيه « لقمان بن عاد » او « سبأ بن يشجب » او « بلقيس » او غيرها بقدر ما يهمنا خبر خرابه وقصة سيل العرم .

القصة

كان ما كان في قديم الزمان ملك كاهن يقال له « عمران » .. وكان بيده علم من بقايا دعاة « سليمان »

وفي اواخر أيامه اخذ ينذر قومه بخراب بلادهم وتشتيتهم في البلدان ، فيقولون: شيخ كبر ! ولما حضرته الوفاة ، وقد بلغ أرذل العمر ، طاوياً اربعة قرون،دعا اخاه « عمراً بن عامر» ٢) ـ الذي كان قد بلغ ثلاثمائة عام ـ وقال له : ان امرأة من قومه يقال لها « ظريفة » ـ بنت الخير الحجورية ـ سترث علمه ... ثم انذره ثانية بخراب البلاد ومات ... فولي « عمرو » الملك وتزوج ظريفة .

وكان عمرو هذا ملكاً عظيماً بمأرب . وكان له تحت السد من الجنان ما لا يحاط به ، حتى ان المرأة كانت تمشي من بيتها وعلى رأسها اناء ، فلا تصل الى بيت جارتها الا وهو ملآن بالفواكه دون ان تمس منها شيئاً ! وكان الرجل يمشي تحت ظلال الشجر شهرين فلا تصل اليه الشمس !!

وحدث ان كانت ظريفة نائمة ذات ليلة فرأت كأن آتياً جاءها وقال لها : ما تحبين يا ظريفة ؟ علماً تطيب به نفسك ، او ولوداً تقر به عينك ؟ فاختارت العلم ... فجر بيده على صدرها،ومسح

١) ص ٣٨٣ جـ ٤ ـ معجم البلدان لياقوت
٢) في ص ٣٨٤ « نفس المصدر» عكس في الترتيب ، حيث يجعل ياقوت الأول وارث الثاني. والمسعودي « في مروج الذهب جـ٣ ص٣٧٨ ـ ٣٨٦ فما بعد» يوافق الهمذاني الا أنه يبطىء في موت عمران فيجعله يشاهد بيع الملك، ويصف لمن يود الرحيل عن اليمن البلدان ليختاروا منها ما يشاءون

بظاهر كفه بطنها فعقمت ولكنها اتسعت في العلم !!

وكانت مرة نائمة الى جانب عمرو ، فهبت مذعورة اذ رأت كأن سحابة غشيت اليمن وهي تبرق وترعد ... فسألها : مالك يا ظريفة ؟ !

فقالت : أزف بكم الغرق، وأتاكم من الامر ما قدّر وسبق..

ولم يلبث عمرو اياماً حتى خرج ومعه قينتان الى بعض حدائقه ، فطلبته ظريفة ومعها وصائفها ...فاعترضها في طريقها ثلاث مناجذ ١) منتصبات على ارجلهن ... ثم غبن ، فتابعت سيرها ، فوثبت امامها من خليج ماء سلحفاة ووقعت على التراب، واستلقت على ظهرها ، ثم عادت الى الماء . فعلمت ظريفة من المناجذ والسلحفاة اشياء ... وتابعت سيرها، حتى دخلت الحديقة نصف النهار ، فرأت شجرها يتمايل من غير ريح !

وظن عمرو ان غيرتها حملتها على القدوم، فأخرج الجاريتين، وقال لها مرحباً يا ظريفة ، هلمي الى فراشك ...

فقالت : هيهات ! والنور والظلماء، والارض والسماء، ليهلكن الشجر بالماء. وعلم انها كرهت اخباره وعنده القينتان فابعدهما.. وعندئذ انذرته بالخطب ... وكان لا يزال متكئاً على الارائك فاستوى جالساً ، وقال لها : صدقت ، فما وجه ما تذكرين ؟

فقالت : انطلقوا الى ظهر الوادي ، فسترون الجرذ العادي، يجر كل صخرة صيخاد بانياب حداد ، واظافر شداد ...

فانطلق حتى اشرف على السد ، فاذا بجرذ احمر تحفر السد وتبحث برجليها ، فتقلع الصخرة التي لا يستقلها مائة رجل ... ثم تدفعها بمخالب رجليها ... فاغتم وصدق قول ظريفة، ثم رجع مهموماً فسألته : ما وراءك ؟ فاجابها بما رأى « شعراً » ...

فقالت : يا عمرو ، اذا ظهر الجرذ الحفار، فاستبدل لنفسك داراً من دار وجاراً من جار ، فعندها تنزل الاقدار ...

وطلبت منه النجاة..فرتب حيلة لكي يترك ملكه، ونفذها، ثم باع ملكه كما باع ذووه ضياعهم ، وارتحلوا عن ارض اليمن..

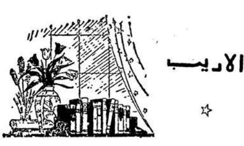
وكان ذلك الجرذ قد خرّب السد ، فطغى الماء وغرق البلاد حتى لم يبق من جميع الزروع والثمار الا ما كان في رؤوس الجبال ، والامكنة البعيدة .

وكان اكثر ما خرب بلاد كهلان وعامة بلاد حمير ! اما القبائل اليمنية التي ارتحلت عن اليمن فسكنت الحجاز في اماكن كثيرة والشام والعراق وعمان وغيرها من بلاد العرب .

---

١) « وهي دواب تشبه اليرابيع - مروج الذهب : ص ٣٨٠ ج ٣ »

الاديب



☆

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : ١٥٠ قرشا مصريا او ٦ دولارات ونصف

في الولايات المتحدة ١٠ دولارات في الارجنتين ١٠٠ ريال

اشتراك الانصار :

في لبنان وسوريا : ١٢٠ ليرة كحد اعلى

في الخارج : ١٤ جنيها مصريا او استرلينيا او ٦٠ دولار كحد اعلى



المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

•

ادارة الاديب : باب ادريس ، شارع الكبوشية

تليفون { الادارة : ٤٧ - ٩٢ ، المنزل : ٣٧ - ٤٨ } Tél. { Direct. : 92 - 47 , Dcle. : 48 - 37 }

☆

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : **البير أديب**

سكرتير التحرير : **محمد يوسف نجم**

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي:
مجلة الاديب - صندوق البريد رقم ٨٧٨
بيروت - لبنان

والقصة ١) تمتد فتذكر حروب هذه القبائل مع سكان المنازل الجديدة مما يطول ذكره .. ولنكتف اذاً بخبر النكبة التي حلت باليمن على اثر انفجار السد ٢) .

القصور

والقصور التي ذكرها الادب العربي كثيرة نكتفي هنا بالاشارة الى اثنين منها وهما غمدان والخورنق :

غمدان

اول قصور اليمن ، واشهرها ذكراً ، وابعدها صيتاً ٣) . يرجعون بناءه الى « سام بن نوح » فهو اول من اسسه ٤) .. ومنهم من ينسب بناءه الى « ابي شرح بن يحصب » ٥) . وقال قوم انه احد القصور الثلاثة التي امر سليمان الجن ببنائها لبلقيس ٦) وقيل وجد حجر فيه مكتوب بالمسند : « بناء غمدان »...وعلى كل فان صاحبه الذي بناه حينما اراد ان يتخذ قصراً باليمن ، احضر البنائين والمقدرين ، فمدوا الخيط ليقدروه ، فانقض على الخيط طير وخطفه ... فتبعوه حتى القاه في موضع غمدان فبناه صاحبه هناك على اربعة اوجه : وجه بحجارة سوداء ، ووجه بحجارة بيض ، ووجه بحجارة حمر ، ووجه بحجارة خضر ٧)

ويزعمون انه بني ساعة طلوع « الثور » وفيه « الزهرة » و « المريخ »...ومن خاصية هذا البرج ثبات الاشياء وقلة تغيرها.. ولقد بلغ القصر في بعض الروايات سبعة سقوف، بين كل سقف وسقف اربعون ذراعاً٨). والثبت عند الهمداني أنه عشرون سقفاً ، كل سقف عشرة اذرع ، وبهذا يكون مائتي ذراع ، ولا يتعذر ـ في رأيه ـ ذلك عليهم لقدرتهم على كل معجز من البناء٩)

١) ا ـ يعدد الهمداني في الاكليل « ج ٨ ص ١٣٥ ـ ١٣٧ » نحوا من ٧٠ سدا في بلاد اليمن ، ويذكر ان بعضهم حدثه بانه يوجد في « يحصب العلو » ـ ممان في اليمن ـ ٨٠ سدا ، ولهذا يقول احدهم : « وفي الربوة البيضاء من ارض يحصب ثمانون سدا تقلس الماء سائلا » صفة جزيرة العرب : ص ١٠١

ب ـ تراجع القصة في : الاكليل ص ٢٦٣ ـ ٢٨٧ ج ٨ . مروج الذهب ص ٣٧٨ ـ ٣٩٤ ج ٣ . معجم البلدان ص ٣٨٤ ـ ٣٨٨ ج ٤ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ص ٢٠٣ ج ٢

٢) ص ٥ ج ٨ : الاكليل ٣) ص ٦ نفس المصدر

٤) ص ٢٤ « وفي معجم البلدان: ص٨١١ ج ٣ « ليشرح بن يحصب »

٥) ص ٨١٢ ج ٣.: معجم البلدان ٦) ص ٢٦ ج ٨ : الاكليل

٧) ص ٦ـ٧ ، ٢٤ـ٢٥ ج ٨: الاكليل . وفي معجم البلدان ص٨١١ ج ٣ يستعيض ياقوت باللون الأسود لونا أصفر

٨) ص ٢٣ ج ٨ : الاكليل وص ٨١١ ج ٣ : معجم البلدان

٩) ص ٢٣ ـ ٢٤ ج ٨ : الاكليل

ولما بلغ صاحب غمدان غرفته العليا التي يبلغ ارتفاعها اثني عشر ذراعاً ـ وهي مجلس الملك ـ الطبق سقفها برخامة واحدة، فكان يستلقي على فراشه في الغرفة ، فيمر بها الطائر فيعرف به الغراب من الحدأة ... وكان للغرفة اربعة ابواب قبالة الصبا والدبور والشمال والجنوب...وفي زوايا القصر الاربع تماثيل اربعة اسود من نحاس مجوفة..اذا هبت الريح زأرت كما تزأر الاسود ١).

وكان صاحب القصر يأمر بالمصابيح احياناً ، فتسرج فيه ليلاً، فكان سائر القصر يلمع من ظاهره، حتى اذا اشرف على الانسان من بعض الطرق ظنه برقاً ولا يعلم ان ذلك من ضوء المصابيح ٢). وفيه يقول علقمة :

مصابيح الصليت يلحن فيه اذا يمسي كتوماض البروق٣)

ويروى انه كان في الغرفة العليا منه ستور فيها اجراس، اذا ضربت الريح تلك الستور ، سمعت اصوات من الاجراس من مكان بعيد٤).وكانت الى جنب القصر نخلة يانعة سحوق تطرح بعسبانها الى بعض ابهائه٥).

وقد طاول هذا القصر الزمن حتى قيل ان فيه نزلت الآية: « لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم »٦) . فارسل النبي احدهم ليهدمه فلم يقدر على هدمه ، وعندئذ احرقه . ولم يهدم الا بعد وفاة النبي ٧).حيث لم تزل « حمير » تنزله وتزيد فيه حتى أخرب في ايام عثمان٨).

وذكر ان قيل لعثمان ان كهان اليمن يزعمون ان الذي يهدمه يقتل ، فامر باعادة بنائه ، فقيل له لو انفقت عليه خرج الارض ما اعدته كما كان ، فتركه...فلما خرب ، وجد على خشبة مكتوب عليها برصاص مصبوب : « اسلم غمدان هادمك مقتول » ، فهدمه عثمان فقتل٩) .

فاذا صح ، كما يرى زيدان ، قول الهمداني وياقوت ان بانيه هو « اليشرح بن يحصب » كان بناؤه في القرن الاول للميلاد . ويكون قد عاش نحواً من ٦٢٠ عاماً١٠).

الخورنق

ولعله اشهر القصور التي كانت في نواحي العراق ، والتي كان

١) ص ٢٠ ـ ٢٤ ج ٨ : الاكليل ، ص ٨١١ ج ٣ : معجم البلدان

٢) ص ٨١١ ج ٣ : معجم البلدان ٣) ص ٢٥ ج ٨ : الاكليل . في معجم البلدان « ص ٨١١ ج ٣ » ذو جدن الهمداني

٤) ص ٢٥ ـ ٢٦ ج ٨ : الاكليل ٥) ص ١٧ نفس المصدر

٦) القرآن الكريم س٩ آية١١١ ٧) ص٢٦ ـ ٢٧ ج ٨: الاكليل

٨) ص ١٩ نفس المصدر ٩) ص ٨١٢ ج ٣ معجم البلدان

١٠) ص ١٤٥ :العرب قبل الاسلام لزيدان مطبعة الهلال ـ مصر١٩٠٨

طالما يذكر بعضها معه في احاديث العرب واشعارهم ولقد مر معنا قول بعضهم :

أهل الخورنق والسدير وبارق   والقصر ذي الشرفات من سنداد

واذا ما اختلفوا في باني الخورنق فانهم لا يختلفون في بنائه «سنمار». فابن الاثير يذكر ان بانيه «يزدجرد الاثيم»، حيث سأل عن منزل صحي ، فدل على ظاهر الحيرة، فدفع ابنه «بهرام جور» الى «النعمان» يأمره ببناء الخورنق مسكناً له في بوادي العرب[1] .

وقال «الهيثم بن عدي» ان الذي امر ببنائه هو «النعمان ابن امرىء القيس». وكان قد ملك ثمانين سنة ، وبنى الخورنق في ستين سنة. بناه رجل له من الروم يقال له سنمار فكان يبني السنتين والثلاث ويغيب الخمس سنين ، واكثر من ذلك واقل ، فيطلب فلا يوجد ثم يأتي فيحتجب... ولم يزل هكذا ستين عاماً حتى فرغ من بنائه .

وصعد النعمان على راس القصر ونظر الى البحر تجاهه والبر خلفه فرأى الحوت والظبي والنخل، فقال ما رأيت مثل هذا البناء قط

وتشاء المنية لسنمار ان يتفلسف فقال: اني اعلم موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال النعمان : ايعرفها احد غيرك ؟ فقال : لا ، قال : لا جرم لادعنها وما يعرفها احد . ثم امر به فقذف من اعلى القصر الى اسفله فتقطع[2]. فضربت العرب فيه المثل فقالوا : «جزاء سنمار» للذي يصنع خيراً فيجازى شراً[3]

عام الفيل

كنا ذكرنا ما كان من امر ابرهة وبنائه «القليس» بصنعاء، وكتابه الى «النجاشي» بانه سيصرف اليها حج العرب . وكيف ان احد النسأة ارسل من احدث فيها ، فغضب ابرهة وحلف ليسيرن الى الكعبة ليهدمها .

ويكمل ابن اسحاق حديثه فيقول : ان أبرهة امر الحبشة فتهيأت، وساروا بالفيل الذي ما سمع بقدومه العرب حتى استعظموه

وفي طريقه الى مكة خرج اليه رجل من اشراف اليمن برجاله يقال له «ذو نفر» ليصده فاسره ابرهة.. ولما كان هذا في ارض «خثعم» عرض له «نفيل بن حبيب» الخثعمي بقبيلتي خثعم «شهران وناهس» ومن تبعهم، فكان نصيبه ما اصاب «ذا نفر»

---

١) ص ٢٨٧ ج ١ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير
٢) ص ٤٩١ ج ٢ : معجم البلدان
٣) ص ١٣٤ ج ١ : الميداني

وتابع ابرهة سيره حتى مر بالطائف، فخرجت له ثقيف يقدمون الطاعة ليصرفوه عن بيتهم «اللات».. وارسلوا معه «ابا رغال» يدله على طريق مكة ، الا انه مات عند «المغمس» فرجمت العرب قبره

ولما نزل ابرهة هناك، بعث بحبشي الاسود بن مقصود فاستاق اموال تهامة ـ وكان اهلها قتلوا رجلا امره «ابرهة» ان ينادي بحجيج القليس ـ واصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب كبير قريش وسيدها... وهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم بقتاله، الا انهم عرفوا ان لا طاقة لهم به .

وطلب ابرهة سيد قريش بعد ان اخبره انه لم يجيء الا لهدم البيت ، ولا حاجة له بحربهم .. فانطلق عبد المطلب اليه فقابله ابرهة بالترحاب ، وكان بينهما ما ذكرناه سابقاً ، من طلب ابن هاشم ابله فقط لانه ربها ولان للبيت رباً يحميه .

وخرج عبد المطلب بابله ، وأمر قريشاً ان يتحرزوا في شعاف الجبال ، واخذ مع نفر من قومه يستنصرون رب البيت على ابرهة ، ثم انطلقوا من مكة الى الجبال ينتظرون ما ابرهة فاعل .

واصبح ابرهة مجتمعاً على هدم البيت فعبأ جيشه وهيأ فيله، وكان اسم الفيل محموداً ، وعندئذ اقبل نفيل بن حبيب واخذ بأذن الفيل وقال : « ابرك محموداً وارجع راشداً من حيث فانك في بلد الله الحرام » . ثم ارسل اذنه فبرك الفيل ، ونفر ابن حبيب حتى صعد الجبل .

وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، وفعلوا به الكثير عبثاً ، فوجهوه الى اليمن فقام يهرول ، وكذلك الى كل الجهات الا جهة مكة ان وجهوه اليها برك .

وارسل الله عليهم طيراً من البحر امثال الخطاطيف مع كل طير منها ثلاثة احجار بمنقاره ورجليه ، كالحمص والعدس ، لا يصيب الحجر منها احداً الا هلك ، لانها كانت تخترق جسد الرجل من رأسه .

وطلبوا النجاة ولكن اين المفر ؟ وخرجوا يتساقطون بكل طريق ، واصيب ابرهة في جسده ، فكان يتساقط انملة انملة ، حتى ما وصلوا به صنعاء الا وهو مثل فرخ الطير ومات هنالك (١)

وفي هذه الحادثة يقول تعالى (٢) «ألم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل ، الم يجعل كيدهم في تضليل ، وارسل عليهم طيراً ابابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول» (١)

١) يراجع : ص ٢٩ ـ ٣٨ السيرة
٢) القران الكريم ـ سورة الفيل

ايام العرب

يقول تتشر Thatcher انه لا يوجد بين القصص المتداولة في زمن محمد ذات قيمة الا « ايام العرب » او تلك المعارك الداخلية التي كانت تقع في البلاد العربية بين القبائل ٢) .

ومن البديهي ان لا نتحدث هنا عن كل هذه الايام فهي كثيرة ، والحديث عنها ، وحدها ، يحتاج الى كتب ، ولهذا نقف على بعضها كحرب «البسوس» و «يوم ذي قار» !

البسوس

تجاور « جساساً بن مرة » خالته « البسوس » التميمية ، وكان لها ناقة — وفي رواية اخرى ناقة لجار لها من « جرم » اسمه « سعد » — يقال لها « سراب » .

وتمر لكليب ابل بالناقة ، فتنازع عقالها حتى تقطعه ، وتتبع الابل .

وكليب وائل حامي مواقع السحاب ومجير الوحش ، فكيف ترد سراب مع ابله ؟

ولهذا انكرها حينما رآها واشتد عليها بسهم فرمى ضرعها .

وتنفر الناقة المسكينة وهي ترغو حتى تجيء البسوس فتصيح هذه واذلاه واجاراه !

وتنشد اشعاراً يلتهب لها جساس .

فيهب ومعه صديقه «عمرو بن الحارث» حتى يدخلا على كليب.

ويعاتبه جساس فيجيبه: اتراك مانعي ان اذبّ عن حماي ؟

فيطعنه جساس وعمرو ... وبهذا يجران على «بكر» الحرب.

وترتحل بنو شيبان .

ويتشمر أخو اللهو «عدي بن زيد» شقيق القتيل ثم يهل ، وهو المهلهل الشاعر المعروف ، ويستعد لحرب بكر ... فيقصر شعره ... ويترك النساء والغزل... ويحرم القمار والشراب طلباً للثأر الرهيب .

وتشتعل نار حرب شعواء بين « بكر » و « تغلب » وتتجلى البطولة في أروع مظاهرها ، وتنتظم الحرب ملحمة على أجمل ما تكون الملاحم ، لا ينقصها الا عنصر الآلهة حتى ترتقي الى ذروات القصص البطولي الخالد .

١) يراجع تفسيرها وقصتها في تفسير الطبري ص ١٦٤ ـ ١٨٩ ج٣٠ وفي الكشاف ص ٤٨٦ ج٢ وبطالع الكامل لابن الأثير ص ٣٢٠ ـ ٣٢٤ ج١
٢) ص ٢٦٣ ج ٢ Enc. Brit.

ولا يبالي المهلهل بأي قبيلة من قبائل بكر أوقع وتطول هذه الحرب التي أثارها قتل ناقة وتستمر أربعين عاما حتى يصالح بين الفريقين «عمرو بن هند» ويردهم عن القتال ...

هذا القتال الذي كان شؤما على «بكر» و «تغلب» بالسواء فضرب بالبسوس وناقتها المثل فقيل : «أشأم من البسوس» و «أشأم من سراب» .

هذا ، وليس لنا ، كما قلنا ، ان نعدد ايام العرب حتى ولا أيام حرب البسوس نفسها ، فنصف وقائعها بالتفصيل وخير ما هنالك الرجوع الى مواضعها في خزائن الادب والتاريخ[1] حيث تستلهم أروع المواضيع الشيقة لشعراء اليوم وادبائهم .

وكما اشرنا الى كثرة ايام العرب لا بد وان نشير ايضاً الى الطلاوة الممتعة التي يشعر بها القارىء احيانا ، والحقيقة ان ايام العرب تمثل نواحي من حياتهم في الجاهلية اجمل تمثيل . وختاما لا يسعنا الا ان نشير الى حرب الفجار[2] بين «هوزان» و «كنانة» ثم الى حرب «داحس» و «الغبراء»[3] بين «عبس» و «ذبيان» ، قبل ان نذكر شيئاً عن ذي قار ، اول يوم انتصفت فيه العرب على العجم .

ذو قار

ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة .

وبطل هذه الوقيعة ، على ما هو مشهور ، هانىء بن مسعود الذي استودعه النعمان سلاحه ، فامتنع عن تسليمه الى كسرى غير ان «ابن عبد ربه» يقول : «لم يكن هانىء بن مسعود المستودع حلقة النعمان ، وانما هو ابن ابنه واسمه «هانىء بن قبيصة» بن «هانىء بن مسعود» لأن وقعة ذي قار كانت وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم وخبر اصحابه بها» [4] .

وهكذا تتضارب الآراء فيما اذا كان هانىء بن مسعود بطل ذي قار او حفيده هانىء بن قبيصة [5] ولعل هذا التضارب راجع الى مشابهة الاسمين ...

وعلى كل فالبطل هانىء .

يقتل النعمان «عدي بن زيد» لاسباب .. فيسعى ابنه «زيد ابن عدي» عند كسرى حتى يهيجه عليه ويستثير غضبه .. فيخرج النعمان يطوف بالقبائل محتمياً من كسرى ، فلا تجيره حتى يصل الى بني شيبان فيلتقي بهانىء ، ويقيم عنده في ذي قار .

ويرد كتاب من كسرى الى النعمان يستدعيه على الامان فاستودع هانئاً سلاحه وماله واهله ....

وسار الى كسرى .. فما كان من هذا الملك الا ان سجنه «وقيل قتله» حتى مات ... وولى مكانه طائياً على العرب . ثم يطلب من هانىء ودائع النعمان ... ولكن هيهات ! أيسلمها بطل شيبان ويخون عهدا اخذه على نفسه ؟

عندئذ يرسل ملك الفرس جيوشه لحرب العرب .

والتقت الاعاجم والعرب في ذي قار ....

وتفتك نبال الاعاجم اولا بالعرب ... فيحملون حملة المستميت دفعة واحدة على الفرس .

ويفتك العطش بالفرس فيميلون الى الشرب فيشتد العرب عليهم فيشتتون شملهم وتبلي «بنو عجل» في ذلك اليوم بلاء حسناً وتفتخر «بكر بن وائل» كلها بهذا الظفر وينتشر صيت البطل هانىء بالآفاق وترجع العرب أشعار الانتصار في كل صقع[6] .

محمود الحوت

1) يراجع : العقد الفريد : ص ٣٥٥ - ٣٦١ ج ٣ . الميداني : ص ٣١٩ - ٣٢٠ ج ١ . الكامل : ص ٣٨٤ - ٣٩٧ ج ١ .. وغيرها
2) انظر اسواق العرب في الجاهلية والاسلام للافغاني ص١٤٥-١٦٢ دمشق ١٩٢٧
3) انظر الكامل لابن الأثير ص ٤٢٠ - ٤٣٥ ج ١
4) ص ٣٨٣ ج ٣ : العقد الفريد
5) ص ١٠٢٨ - ١٠٢٩ ج ١ تاريخ الطبري
6) ص ٣٨٣ - ٣٨٧ ج ٣ : العقد الفريد

حنين

مهداة الى رفيقتي في منفاي

لفؤاد الخشن

من اسرة الجبل الملهم

فنزويلا

حنينٌ هزّ أعماقي
وحرّك جمر أشواقي
الى دنيا من السحرِ
وراءَ الغيم والبحر
فهاتِ الكأس يا ساقي
ولا تشفق على الباقي
من الخمر !
انا يا صاح لي شكوى فهل تسمع ؟
وهل ترثي لجفن العين إن يدمع ؟
أنا في غربتي الخرساء
مشبوبُ المراراتِ
تؤرقني مناجاتي
لدنيا قد هجرناها
وجنات اضعناها
على عمد !
هنا يشقى فؤادان
من الهوّة بين الامس والآن ..
هنا كدحٌ وحرمانُ
واشواق واشجان
هنا... في هذه الارضِ
نضيّعُ زهرة العمر
وراء الدرهم القذر
ونقضي الليل في سُهدٍ
وافكارٍ شقياتٍ
كثيرات التهاويل
كاسراب فراشات
على نيران قنديل !!
هنالك ... كانت الدنيا تناجينا !
وكان النبع يسقينا
نعيم الاضلع الحرّى
فاين الآن ما كانا
وأين جمال دنيانا
وصوت تساقط المطر
على شبا كنا الخفر

☆

وتغريدُ الصغيرين
مع الفجر !
وأين « نبيلُ » يغزونا
بشوح براءة الطهر
ونور الأعين الخضر
وأين تكوّرُ القبله
على شفتيكِ يا « نهله »
وومضة عينك السوداء في العتم
ورفات الجناحين تناديها الى الضم ؟!
هناءاتٌ خسرناها
واشياء فقدناها
فوا لهفة نفسينا
ويا حرقة قلبينا
على الهجر
رفاقي !... أين ما كنّا
شباباً بالسنا جُنّا
إذا لاح الهوى غنّى
وأين بشاطىء مغرمْ
ليالي « الجبل الملهم »
ليالي الخمر والشعر
وانغام الصباباتِ !
رفاقي آه كم اهفو الى خلوه...
تسلسل خمرة الذاتِ
وتملأ اضلعي نشوَهْ
وكم اهفو الى غفوه
على عشب الربى الغضٍ
بها أذرو ضباباتي
واسبح في خيالاتي
واحلامي !...
أنا للحقل بي لَهَفٌ
وبي شغف
الى وادٍ من الآسِ
تعمّق فيه احساسي
على انغام شادوف
يموج صداه في الريف ...
وبي شوق الى غابة زيتونِ
تلامس زرقة البحر وتغويني
بازهار شذيّاتٍ
تهزّ مباخراً ثملى
برعشة طيبها الدامي
رفاقي املأوا كأسي !
على «شوران»، للذكرى...أعيدوني
الى دنياكم الحلوه
ولو بالذكر والوهمِ
فاني ههنا اشقى
بشوقٍ جدّ مكبوتٍ
وقلب خافقٍ متعَبْ !
فما احلى
سنا اطلالة المركبْ
على ميناء بيروت
وزهورِ جبال لبنانِ
هنالك ... حيثما نلقى
لنا اهلاً وخلاّنا
ونسعد قرب طفلين...
ويرجع وجه دنيانا
جميلا مثلما كانا !!

على هامش كتاب الشابي : حياته ، شعره

بقلم الدكتور احمد زكي أبو شادي

استاذ الادب العربي بمعهد آسيا في نيويورك

هذا كتاب ممتاز لاديب ممتاز عن شاعر ممتاز . الفهاحد نوابغ الادباء التونسيين السيد ابو القاسم محمد كرو من خريجي دار المعلمين العالية ببغداد ، ومن الشباب الناهض الواعي الوطني الغيور الذي درس وساح وفكر ، ثم بدأ يزكي عن معرفته لابناء الضاد جميعاً ، فأتحفنا بنخب من شعره المنثور في كتابه « كفاح وحب » ، ثم نفح العربية بدراسة ممتعة لحياة ابو القاسم الشابي وشعره ، سيتبعها بدراسة اضخم .

وتقع هذه الدراسة التي نحن بصددها في كتاب ينتظم ثمانياً وثلاثين ومائتي صفحة من القطع المتوسط مطبوعة طبعاً انيقاً ومزدانة بصور ملونة جميلة للقصائد البديعة التي اثبتها او على الاصح لاهمها بريشة الفنان ع . شهال ، وقد عنيت باخراجها في صورة جذابة المكتبة العلمية ومطبعتها في بيروت . وما كان الاستاذ كرو ولا شاعرنا العبقري ابو القاسم الشابي بحاجة الى شيء من الهرج والتزويق ، ومع ذلك فانه يبهجنا ان نرى الطبع الانيق والشعر الانيق والرسم الانيق في مثل هذه الوحدة الجميلة الخلابة .

وبروح المعلم ، واسلوب الاديب الشاعر الملم ، يحسن الاستاذ كرو في تقسيمه الكتاب وفي عرضه مواده فيتحدث بعد مقدمته البليغة عن الحياة الثقافية في تونس القديمة ، ثم عن النهضة الحاضرة ، فعن حياة الشاعر وبيئته الاجتماعية ، وعن تأثره بالادب المهجري ، وعن طاقته التصويرية والتعبيرية ، ثم عن زواجه وحبه وعن مؤلفاته ، ثم يأتينا بمختارات شائقة من شعره فيقسمها قسمين – اولهما ما يرجع الى ما قبل العشرين ، وثانيهما ما يرجع الى ما بعد العشرين من سني الشاعر حتى وفاته ، ثم يختم كتابه بنماذج رائعة من نثر الفقيد ومعظمه بمثابة شعر منثور .

وليس بوسعنا في هذه الالمامة ان نتناول تفاصيل ما عرضه المؤلف الفاضل تمهيداً للكلام عن ألمية الشابي ، ولكن بحسبنا ان نشير الى ان النابغة ظهر – ككثير من النوابغ – في وسط متأخر بحكم الظروف الاجتماعية المعروفة ، فلم يتجاوب ذلك الوسط معه ، ولكنه ارتفع فوق الوسط كما ترتفع المنارة فلا تحس بها الارض التي تحتها ولكنها تشع الى مسافات بعيدة .

وفي بداية الكتاب اهتم المؤلف بالتنبيه الى ان صحة اسم شاعرنا هي الشابي" لا الشابي ، نسبة الى الشابية إحدى ضواحي مدينة [توزر] كبرى بلاد [الجريد] بالجنوب التونسي . وهذا غير مجهول في الشرق العربي الذي يميل اهله عادة الى تخفيف النطق بالاسماء – ولا سيما في مصر – ومن ثمة نطقوا اسم شاعرنا الحالق بالباء المخففة والباء الممدودة ، وجاراهم الخاصة في هذا النطق ، وإن لم يجهلوا الوضع الاصلي لاسمه .

وقد اعجبنا بتحليله للعناصر التي اسهمت في تكييف حياة الشاعر واغلبها مزيج من الاحزان والحرمان ، ويالها من عناصر اثيمة تألبت على كثيرين من الموهوبين فصهرتهم صهراً وضحت بهم لتغنم نورهم الوهاج المنبعث من احتراقهم .

وبين الخيوط التي حاكها الاستاذ كرو في نسج سيرة الشابي بيئة الطبيعة الجميلة التي حفت بالشاعر ، ودراسته الواسعة التي انتهت بتخرجه من كلية الحقوق التونسية في سنة ١٩٣٠ . وهو في الحادية والعشرين ، ونكبته بوفاة والده عائل الاسرة ، وفشله في زواجه ، ومرضه الطويل المؤلم الى ان توفي في الثامن من شهر ايلول « سبتمبر » من سنة ١٩٣٤ غير متجاوز خمسة وعشرين عاماً، اذ ولد مع الربيع في آذار «مارس» من سنة ١٩٠٩ .

يقول المؤلف الكريم في رسالة ادبية الينا بتاريخ الخامس من مايو سنة ١٩٥٣ جاءتنا إثر تسلمنا كتابه الممتع : « يسرني ان تتفضلوا بابداء رأيكم ... خصوصاً وان لكم صداقة شخصية قديمة بالفقيد الشابي ، ويعود لكم الفضل الاول في تعريف القراء بادبه منذ عشرين سنة مضت وحتى اليوم ، وانتم تكتبون عنه في مناسبات مختلفة دراسات عميقة قوية ، ومع ذلك فان ادب

الشابي لا يزال بحاجه كبيرة الى البحث والكتابة والدرس. وكم كان مؤسفاً حقاً موقف اهله بعد موته. ورغم مرور ثمانية عشر عاماً على وفاته فانهم لا يزالون مصرين – في عناد الحمقى والجهلة – على عدم نشره ، لا لسبب سوي عقلية محنطة وافهام متحجرة. وهكذا لم اجد مناصاً من العمل بكل ما لدي من جهود وإمكانيات على خدمة هذا الفقيد المنكوب في حياته وبعد موته. لقد كان اهله سبب موته المادي ، وها هم اليوم يتآمرون على قتله المعنوي فيرفضون في عناد نشر مؤلفاته وديوانه المعد للطبع رغم كل العروض المغرية التي عرضت عليهم. وقد كان الفقيد اعده للطبع واتفق معكم – حسبما اظن – على طبعه في مصر ، ثم عاجله الموت قبل ان يرسل اليكم الديوان بيوم واحد. هذه حقائق لست ادري اذا كان لكم علم سابق بها ام لا. وقد رأيت – كاحد مواطني الشابي – ان أنشر عنه كل ما هو عندي من ادبه ومعلومات حياته خدمة له وللادب العربي الذي يعتز بالشابي. فكان اول عمل قمت به هو نشر كتاب يشمل دراسة طويلة لحياة الفقيد وبيئته ومؤلفاته ثم عرض نماذج مختارة من شعره ونثره لتكون لدى القراء صورة كاملة عنه. ولست أدري مدى نجاحي في عملي هذا ، ولكني اعلم مدى إخلاصي فيه وحبي للشابي. على انني سوف لا اقف عند هذا ، بل انني ساواصل العمل على انجاز كتاب ضخم عن الشابي يكون اكبر مرجع لحياته وادبه. وانا الآن بصدد إعداد هذا الكتاب الذي يحتاج الى زمن طويل كي ينجز على اكمل وجه مستطاع. وانني ارحب سلفاً بكل ملاحظاتكم واقتراحاتكم وتوجيهاتكم ، ويسرني كل السرور ان القى منكم كل اهتمام وعناية ومعونة...»

واننا لنبادر فنقول إن العمل المجيد الذي قام به الاستاذ كرو هو في حد ذاته خدمة جليلة لذكرى الشابي وادبه ، ونحن على علم بما ذكره ، وقد كانت رغبة الفقيد العزيز ان نكتب مقدمة دراسية تحليلية لديوانه ، وان تتولى إصداره في مصر « جمعية ابولو » التي كان في طليعة اعضائها المراسلين ، وان وصيته لم تنفذ. لقد تجمعت لدينا رسائل كثيرة من الفقيد العزيز تعد باسلوبها العالي وبصراحتها الوجدانية من عيون الادب الفكري والعاطفي معاً ، ولكنها ، مع مئات الرسائل الادبية من ادباء وشعراء اعلام شرقاً وغرباً – وبينهم شعراء وادباء بارزون في المهاجر – قد ضاعت تحت وطأة العهد البائد في مصر قبل هجرتنا وبعدها ، وكنا نؤثر ضياع بقية مكتبتنا المخزونة على ان تنال الايدي المتطاولة المتجسسة ذلك الادب الحي والتاريخ الادبي المعاصر الذي سلب منا ، وقد جاء ضياع تلك الرسائل القيمة التي تجمعت لدينا منذ سنة ١٩٢٣ الى سنة ١٩٥٦ م. من اقسى المآسي الادبية المتعددة التي نكبنا بها في حياتنا المضطربة.

اما وهذا المصدر الهام لدراسة نفسية الشابي ليس تحت ايدينا فليس لنا الا ان نشاطر الاستاذ كرو الامل في ان اصدقاء الفقيد العزيز ، وفي مقدمتهم الاديب الموهوب الاستاذ محمد الحليوي ، وشقيق الفقيد الاستاذ محمد الامين الشابي ، سيتمكنون اخيراً من إنقاذ الآثار الباقية للشاعر الفقيد من ايدي اسرته ونشرها للعالم العربي ولعالم المستشرقين ودارسي الادب المقارن ، ففي ذلك تشريف للاسرة بالذات وتشريف لابناء الضاد جميعاً.

وبعد ، فقد رأينا الاستاذ كرو يتحدث عن تأثر الشابي بالادب المهجري ، وعندنا انه لم يتأثر به اي تأثر خاص ، ولو

جاء شطر أو بيت له في صياغة "الكلاسيكية" مع اختلاف المعاني — مماثلا لصياغة جبران او سواه، مثلما تقع الحافر على الحافر كما يقال.

لقد كانت للشابي ذاكرة فوتوغرافية ، وهو الذي اتم حفظ القرآن الشريف في التاسعة من عمره حفظاً كاملا ، كما كان له اطلاع واسع — عن طريق اللغة العربية التي لم يكن يعرف سواها — على آداب شتى مترجمة ، لا على الادب العربي وحده ، وكانت له قبل كل هذا وبعده لوذعية اصيلة حلقت فوق كل تقليد وتأثر حتى منذ نعومة اظفاره ، وعلى ذلك لنا ان نعتقد ان اية مشابهة بين شعره وبين بعض الشعراء المهجريين هي من باب المصادفة لا اكثر . ولعل اعظم تجاوب للشابي كان مع زملائه شعراء «ابولو» حتى قبل ظهور مدرستها . ونحن شخصياً اولعنا بالشابي لا لعبقريته الفنية فحسب، بل لانسانيته الرفيعة ولوطنيته السامية ايضاً . وكان التجاوب بيننا تاماً مع تميزه هو باناقة لا نعرف لها نظيراً الا في قصائد الشاعر الفحل العظيم بشارة الخوري . مثال ذلك موسيقى الشابي في قصيدته الخالدة « صلوات في هيكل الحب » التي يقول في مطلعها :

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد !

فهي متجاوبة مع قصيدة «عرس المأتم» التي كان يعجب بها الشابي ديوان «زينب» وقد جاء في مطلعها غير المسبوق الى طرازه :

عذبة أنت في الخفاء، وفي الجهر، وفي الهجر، يا أغاني الظلام!
بلغي العاشق الأمين مدى العمر شقاءً لقلبه المستهام
وارقئي أدمعي ، فحسبي عزاء أن يُسر الحبيب من إيلامي !

ومثال آخر قصيدته العظيمة «إرادة الحياة» فانه متجاوب في مغزاها مع الشطر الاخير من قصيدة «النهضة إرادة» «ديوان الشفق الباكي» ، وقصيدته الجميلة «الصباح الجديد» التي يقول في مطلعها:

اسكني يا جراح ! واسكتي يا شجون !

فهو متجاوب فيها بطراز موسيقاها مع قصيدتين رائدتين هما قصيدة «الوداع» «قطرة من يراع — الجزء الثاني» وقد جاء في مطلعها

إنتهب يا شعاع — نبض قلبي الحزين
حان وقت الوداع — ليته لا يحين
إنتهب يا شعاع — أنا ذاك القريب
إن روحي مشاع — في مداك العجيب !

وقصيدة « بعد الصيف » ديوان « اشعة وظلال » التي جاء في مطلعها :

إضحكي يا رمال — من هدير المياه
غاب مُلك الخيال — وتجلى سواه
ذاك بحر الدموع — من بكاء الزمان
فهو دوماً مروع — من مآل الهوان
كل حسن بناه — بيديه يزول
ومراراً رثاه — وأطال العويل
إضحكي يا رمال — من فتوني العظيم
أنا عبد الجمال — الضرير الحكيم

وكان الشابي كما كان ناجي — رحمة الله عليهما — معجباً بكلتا القصيدتين ، وكلاهما تسبح على منوالها . فاذا اراد الاستاذ كرو التوسع في مبلغ تجاوب الشابي مع شعراء عصره فليتجه الى الشرق قبل اتجاهه الى الغرب .

ومهما يكن من شيء فاننا نؤمن بان الشابي كان ذا عبقرية فنية اصيلة في منتهى الاناقة ، كما كان وطنياً عظيم الاخلاص متأهباً للزعامة في بيئته ، وفي هذا يختلف عن ناجي الذي اقتصر جل شعره على وجدانياته الذاتية وغنائياته العاطفية ولم يسهم في الحركة الوطنية . وكان من اسباب ولوعنا بالشابي الذي يوصف إجمالا بأنه الفنان المبدع الحاذق ، والانساني النبيل ، والوطني الغيور المضحي . وقد حقق بمثاليته الشريفة تأميلنا في ان يكون الشاعر زعيما هاديا بين بني قومه إن لم يكن ايضاً زعيما انسانياً . وفي هذه النزعة والتعبير عنها كان تجاوب الشابي معنا كاملا وكنا نعمل كجنود في فرقة واحدة .

اما ما نقترحه الى جانب استقصاء التفاصيل للدراسة فهو شرح شعر الشابي ونقده نقداً فنياً مقارنا قصيدة فقصيدة ، فننتج عن ذلك دائرة معارف ادبية لغوية فنية واسعة يخدم بها الادب الحديث كما تنصف به مواهب شاعرنا الخالد الذكر .

إننا لمشغوفون فخورون بتدريس شعر الشابي وادبه وبالتحدث عن سيرته الزكية ولن نمل ذلك ، ونعتقد ان قراء العربية لن يملوا من قراءة ما كتب وما سيكتب عنه ولو تعددت التراجم والدراسات ، ونعتقد ان كتاب الاستاذ كرو هو من خيرة الدراسات التي قرأناها عن اي شاعر او اديب ، فاليه نكرر التهنئة كما نزجيها الى الناشرين المحسنين .

نيويورك — احمد زكي أبو شادي

عوامل شقاء الاسرة في مجتمعنا

بقلم نزار مؤيد العظم

الاسرة في معناها التقليدي ، هي مجموعة افراد يتصلون فيما بينهم بصلة الدم ، من جهة الاب او الجد الاكبر . غير ان الاسرة في مفهومها الحديث ، لم تعد تضم ذلك العدد الكبير من الافراد ، بل اقتصرت على الابوين والابناء ، حتى سن معينة ، فمتى كبر الابن ، تزوج وانفصل عن ابويه وكون مع زوجه اسرة جديدة مستقلة غالباً عن اسرة ابيه . وكذلك البنت ، ما ان تشب حتى تترك اهلها لبيت زوجها ، فتكون معه اسرة جديدة .

فالاسرة اذن هي الخلية الاساسية التي تغذي المجتمع وتحافظ على بنائه ، وصلاح الاسرة وانتظامها ، يعني صلاح المجتمع وانتظامه . وفسادها واضطرابها ، يعني بدوره فساد المجتمع واضطرابه وانحلاله . لهذا فان كل علاج لا يتناول الاسرة بالدرجة الاولى ، يكون عديم الجدوى وهو بمثابة مسكن يخفف من حدة الداء مؤقتاً دون ان يقضي عليه . وان ما يعانيه مجتمعنا من تهلهل وارتباك وشقاء وعدم استقرار ، يعود في اصله الى عاملين اساسيين يقوضان دعائم الاسرة العربية . هذان العاملان هما : الجهل والفقر . واعتقد ان الجهل اعمق تأثيراً من الفقر واشد نكالا على الاسرة ، ولا يتسع المجال في هذه العجالة كي اضرب الامثال للناس في ذلك . فكم انتج الفقر للعالم من عبقريات وكم شحذ من همم وازكى من مشاعر . والفقر الم في حد ذاته ، وليس كالالم باعثاً للعبقرية والنبوغ . وكم من اسرة غنية مترفة لم يغن عنها غناها ولا ترفها شيئاً من الشقاء والتعاسة والقلق . ومن هذا يتضح لنا خطر الجهل ومدى تأثيره في تحطيم صرح سعادة الاسرة ودعائم استقرارها .

وكلمة الجهل هذه تشمل فروعا عديدة اهمها :

١ - جهل معظم الناس لعامل اساسي في سعادة الاسرة ، هذا العامل ، هو الاهتمام الزائد في التحري عن الحالة الصحية لكل من المرشحين للزواج ، ذكراً كان ام انثى . فالاسرة يجب الا تتكون الا من اشخاص اصحاء ، سليمي البنية والعقل ، اما المصابون بامراض وعاهات جنسية وراثية فالواجب يحتم تعقيمهم تعقيماً جنسياً ثم لا بأس من السماح لهم بعد ذلك بالزواج من امثالهم . فوجود عاهات وراثية تسبب انتقال المرض ذاته الى الابناء او تخلق فيهم استعداداً كبيراً للاصابة به . وقد يختفي هذا المرض في جيل ليظهر في جيل اخر يليه . واصبح معروفا لدرجة البداهة ، ان الاطفال يرثون عن ابويهم مجموعة من الاستعدادات الطبيعية ، عضوية ونفسية ، كما يرثون عن طريق التربية ، العادات الاخلاقية التي يرونها في ابويهم . وما ابأس واتعس ذلك الطفل وهو يرى نفسه موضع شفقة اقرانه او اشمئزازهم ، لعاهة ورثها او لمرض خبيث انتقل اليه من احد والديه .

٢ - عدم التوفق في اختيار شريك الحياة ، فمازال معظم الاباء والامهات يتبعون تقليداً بغيضاً غير مشروع في تزويج ابنائهم وبناتهم ، فتراهم يجبرون الفتاة على الزواج برجل ربما لم تره مطلقاً او ربما كان في سن ابيها ، ولا يجعلون لرايها وزناً او اعتباراً ، بل يكفي ان ينال الخاطب اعجاب الوالد ورضاه ، حتى يتساوما على الفتاة ، مثل المسكينة في زواجها كمثل شاة تباع في سوق الجزارين ، اذ غالباً ما تكون الفتاة من نصيب من يدفع اكبر ثمن او صداق ثم تراها تدفع الى الزواج قسرا وتبدأ معه حياة تكون غالباً زاخرة بالالم والعذاب والشقاء .

والحقيقة التي لا ريب فيها والتي مازال معظم الاباء يجهلونها هي ان الزواج لا يكون سبيلا الى الحياة الهادئة السعيدة المطلقة ، الا اذا اعتقد الاخذون به انه زواج ابدي ، ليس له حق الانحلال ، وكان على اساس متين من التفاهم العقلي والوفاق والانسجام بين الطرفين .

وكذلك الامر في مشكلة تعدد الزوجات ، فهي تكاد تكون سبباً قوياً في تحطيم سعادة الاسرة في زماننا هذا . ولا اعني

بقولي هذا انني انتقد مبدأ تعدد الزوجات في اصله ، فقد جاء في دين كامل لا ليس فيه ولا نقصان ولا مجال فيه لمستزيد او مبتدع . ولكن اباحة تعدد الزوجات ما حدثت الا لظروف سياسية واجتماعية واقتصادية امتاز بها فجر الاسلام وصدره ولا ارى في زماننا هذا تشابهاً بين تلك الظروف وظروفنا الحاضرة . ثم ان الاسلام نفسه زهد الناس في تعدد الزوجات وجزم بعدم امكان العدل بين الزوجات مهما بلغ حرص الرجل على ذلك . والعدل هنا ، هو العدل في الحب والاهتمام والرعاية اذ كيف يتسنى للرجل ان يتحكم بقلبه وعاطفته فيوزعهما بالعدل والقسطاس بين ازواجه ، والحب هبة الهية والقلب لم يكن يوما طوع امر صاحبه ، والعاطفة دائماً متمردة على ارادته .

٣ـ وثالث فروع الجهل ، هو الزواج في سن مبكرة في زمان بلغ من التعقيد حداً لم تبلغه من قبله أزمان سلفت. فالغالب نرى ان الفتاة تدفع الى الزواج ولما تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها . وإن فتاة هذا سنها ، لتعجز عن تحمل أعباء الاسرة من حمل ورضاعة وتربية اطفال ورعاية زوج. وهي لا تقدر بالطبع مسؤلية الحياة الزوجية حق قدرها ، لعدم نضوجها فكرياً وجسمياً ولضآلة نصيبها من التعليم ومن تدبير المنزل واصول تربية الاطفال . وقد توصل علماء الاجتماع بعد دراسة كافة المجتمعات البشرية وخاصة المعقدة منها الى ان خير زواج وأسعده ، ما كان للفتاة حين تبلغ العشرين ، وللفتى حين يبلغ الخامسة والعشرين . إذ يكون الفتى عندها قد تمكن من مستقبله بعض الشيء ، واصبح قادراً على تحمل المسؤولية وتأمين نفقات الاسرة.

٤ – ورابع فروع الجهل ، هو عدم اعتدال الرجل في النسل والاتصال الجنسي ، والمعروف ان الطبقات الفقيرة الكادحة ، اكثر توالداً من الطبقات الغنية المتعلمة ، فتكاد المرأة فيها تلد طفلا في كل عام . مع ان الاسلام جعل فترة الرضاعة والفطام عامين كاملين . ومن البديهي ان المرأة إذ تلد طفلا في كل سنة لتعجز عن العناية بأطفالها الكثر وتربيتهم والسهر على نظافتهم وصحتهم . وكذلك فان صحتها قد تسوء من كثرة الحمل والوضع والاجهاض والتعب في التربية ، فتسبب اضطرابا خطيراً في حياة العائلة يعطي أسوأ النتائج .

٥ ـ وخامس فروع الجهل واخطرها ، هو عدم معرفة الابوين لاصول التربية الصحيحة، الخلقية التوجيهية منها والصحية. فمعظم الاباء والامهات ما زالوا يعتقدون ان الطفل شرير في

طبعه وخبيث وولوع بالعبث والاذى و «الشقاوة» وان الزجر والقمع والتهديد والضرب والتخويف ،خير وسيلة لتربية الطفل ومنعه عن اللعب وجعله صورة مصغرة عن الرجل الرزين الهادىء والمرأة المتزنة الوقور . جاهلين ان للطفولة خصائص تميزها . وان أبرز هذه الخصائص هي اللعب ، فباللعب يعبر الطفل عن وجوده وعن فرحه بهذا الوجود ، وبه ينمي جسمه ويصرف طاقاته الزائدة ، وبه يتعلم ويتعرف على ما يحيط به ، وبه يفصل نفسه عن محيطه ويتخلص من استقطابه الذاتي «الايكوسانتريزم» وقد رايت كثيراً من النسوة في مجتمعنا يتفاخرن بأن اطفالهن هادئون ، لا يلعبون ولا يملأون الدار صخباً وضجيجاً. وانهن يتبعن في اسكاتهم وردعهم ذكر الغيلان والعفاريت امامهم ، فاذ لم يفلحن في ذلك ،لجأن الى الضرب والحبس ومنع الطعام عنهم . ولعمري اني ازاء هذا التفكير المقلوب ، لا يسعني الا ان ارثي لهؤلاء النسوة وان أبشرهن باسوأ مستقبل لاولادهن. وان اعلن لهن بصراحة ان اطفالهن الهادئين المتزنين ليسوا إلا مرضى في اجسامهم ، وسيصبحون مرضى في عقولهم وتفكيرهم. وسينشأون ومعاول النقص تهد كيانهم وسيكون لديهم راس مال موفور الحظ من تهلهل الشخصية وانعدام الثقة والعقد النفسية .

ثم انك لترى الاب والام يعجزان عن التمهيد لمجيء طفل جديد كأن يفهما اطفالهما بان اخا صديقاً سيأتي عما قريب وبانهم سيسرون به ويحبونه ويلعبون معه ويأنسون به بل انك لتجدهما يعمدان الى اهمال الاطفال السابقين ويوجهان كل عنايتهما وعطفهما ومحبتهما وهداياهما للمولود الجديد ، فتنهش الغيرة قلوب الاطفال الصغيرة وتمتلىء نفوسهم بالحقد والكراهية فيعمدون الى تمزيق الستائر وتحطيم الاثاث والشخط على الجدران بالفحم او يتمارضون ، ليسترجعوا اهتمام ابويهم : وينشأون وروح العداوة والبغضاء متاصلة في نفوسهم.

وكثيراً ما نرى الاباء يتشاجرون باقذع الالفاظ مع ازواجهم امام اطفالهم . وقد يبلغ الحمق والجهل ببعضهم حداً يدفعهم الى ضرب نسائهم على مشهد من اطفالهم ، فتنطبع هذه الصور والمشاهد المخزية في اذهان الصغار واذا بهم يقلدون آباءهم تماما فيتشاجرون ويتضاربون وقد يتطاولون على امهم وربما على ابيهم ويبلغون في ذلك شططاً .

واما العامل الثاني واعني به الفقر ... الفقر ،فهو موغل في الشر كزميله الجهل. وهو يخلق مشاكل كثيرة اهمها انه يضطر الاسرة الى التكاثف ضمن بيت واحد وربما ضمن غرفة واحدة، لاتتوفر فيها الشروط الصحية . وان من يقدر له ان يزور المناطق الجنوبية من لبنان وبعض مناطق الفرات والجزيرة والجبل الغربي ، فلسوف يشاهد نماذج حية صادقة للشقاء المجسم. اذيرى القوم هناك يعيشون في اكواخ وكهوف حقيرة نتنة لا يتسرب ضوء الشمس اليها ، وتقاسمهم بهائمهم وسائمتهم كوخهم بالعدل والقسطاس .اذ تجد الغرفة ـ قلت الغرفة على سبيل التجوز ـ على شكل مصطبة مرتفعة في نصفها الداخلي ترقد عليه الاسرة،والنصف الاخر منخفضاً قليلا ترقد فيه الحيوانات مع روثها واقذارها وحشراتها . وانك لو سألت عن دخل الفلاح هناك لما زاد عن الخمس عشرة او العشرين ليرة في الشهر .

ومن الطبيعي ان الفقر يحول دون تغذية الاطفال، بله الكبار، بالغذاء الكامل الذي يتطلبه نموهم السريع وفعاليتهم المتزايدة . فينشأون ضعاف البنية، صفر الوجوه ، وبهم استعداد قوي لتقبل الامراض الفتاكة والاوبئة . كما يحول الفقر دون تأمين الثياب الصحية وحاجات الطفولة الرئيسية وقد يحرم الاطفال من انتهال العلم ويدفع آباءهم الى إرهاق اجسامهم الغضة باعمال وصناعات مضنية عنيفة لا تتلاءم مع قدرتهم الجسمية والعقلية . وقد يدفع الفقر الكثيرين الى التشرد واللصوصية والاجرام . وقد يدفع الفقر الآباء الى تأجير ابنائهم وخاصة البنات ، الى العائلات الثرية في المدن للقيام بخدمة البيوت. كما يحصل في الجبل الغربي ومناطق القلمون ونواحي اخرى ، حيث يضطر الرجل لشدة فقره الى ان يدفع بابنته ولما تتجاوز التاسعة من عمرها الى خدمة العائلات في حماة وحمص ودمشق واللاذقية وحلب وغيرها ، لقاء مبلغ من المال عن بضع سنين . وتصور معي بربك مستقبل هذه الفئة من الجيل ، التي تعيش على فضلات الموائد وعلى الصفعات والركل والتحقير ، بعيدة عن حنان الام وعطف الاب .

هذه هي اهم العوامل التي تسبب شقاء الاسرة في مجتمعنا وهي التي لو اردت ان افصل فيها واتوسع ، لاحتجت الى كتاب كامل . وهي هي نفسها التي يجب ان نعالج وندرس ونوضع لها الحلول ويوصف لها العلاج ومن ثم تحقن به ، لكي نصل الى مجتمع افضل وحياة أسعد ولكي تستطيع المدرسة ان تؤدي رسالتها وتتضافر جهودها مع جهود الاسرة لتخلق جيلا قوياً مؤمناً عظيم النفس . وآمل ان اعود الى هذا الموضوع لاسطر فيه « عوامل تقدم الاسرة وسعادتها » .

سوريا ـ حماة　　　　نزار مؤيد العظم

بقلم عارف تامر

الامير مزيد الحلي الاسدي

شاعر «سنان» شيخ الجبل

لما لا مجال للريبة فيه ان منتصف القرن الخامس الهجري وما بعده او الفترة التي عاش فيها «سنان راشد الدين» «شيخ الجبل» وفرقته الاسماعيلية السورية «الباطنية» في جبال «الشماق» هي من اشد الفترات غموضاً واعمها اظلاماً واعظمها اثراً من الناحيتين الفكرية والتاريخية، ويكفي ان تعلم بانها فترة الحروب الصليبية وعهد صلاح الدين الايوبي ونور الدين الزنكي «الشهيد» وسنان راشد الدين، او فترة الصراع ما بين الشرق والغرب فاذا عرفنا ذلك ادركنا لاول مرة اية اهمية تاريخية لها بنظر العلماء والمؤرخين وعرفنا ايضاً بأن التعرض لبحثها من الامور المعقدة الشائكة. ومن المحاولات التي قلما يجتازها المرء بسهولة وخاصة ما كان منها ذو اتصال مباشر بتاريخ الفرقة الاسماعيلية السورية «الباطنية» الذي لم يراع فيه التجرد والانصاف والرغبة الصادقة باماطة اللثام عن الحقائق المطموسة في بطون الكتب والتحري عن الاصول المجردة خالية من الادران والشوائب، اقول ذلك والاعجاب آخذ مني مأخذه لكلمة اوردها بهذا العدد العلامة الدكتور «فيليب حتي» بكتابه تاريخ العرب خلاصتها [بأنه لا يمكن الاعتماد على اقوال المؤرخين عن هذه الفرقة لان جميع كتبها ومصنفات اعلامها قد احرقت ولم يبق بين ايدينا الا ما كتبه عنها اعداؤها مما لا يمكن الاعتماد عليه] وقال الاستاذ الدكتور عمر فروخ بكتابه «دراسات عن اخوان الصفا» [بأن هنالك في التاريخ الاوربي بحثان لا يهجم عليهما كل مؤرخ الا حذراً متباطئاً. تاريخ البابوية في العصور الوسطى ثم تاريخ البلقان في العصر الحديث. وكذلك نجد في تاريخ الفلسفة الاسلامية ناحيتين قلما امن الباحث في مسالكهما علم الكلام واخوان الصفاء [الاسماعيليين] الذين كتبوا باسلوب رمزي ولانهم ارادوا فعلا الا يصل القاريء الى معتقدهم بيسر وسهولة]. هذه اقوال اتينا على ذكرها لندلل على ما كنا قد اوردناه بمناسبات عديدة بانه قد نشأ في هذه الفرقة علماء وفقهاء وشعراء قلما يشق لهم غبار وهؤلاء قد وضعوا مؤلفات علمية قيمة هيأوا فيها الاذهان لتقبل الفلسفة الاسلامية وبعض الانتاج الفكري في عصور مختلفة، ومن بينهم شاعر يحق لنا ان نحكم عليه من خلال قصائده بانه من الجديرين بان يحتلوا المكان البارز بين الشعراء المتاخرين. والغريب جداً ان احداً من المؤرخين امثال: بروكلمن او حاجي خليفة او ايفانوف او ماسينيون او محمد كامل حسين او برنارد لويس او موريس باليس او غوبار او غيرهم من الذين بحثوا في الاسماعيليات لم ياتوا على ذكره او يشيروا اليه.

هو الامير مزيد الحلي بن صفوان بن الحسن بن منصور [بهاء الدولة] بن دبيس [نور الدولة] بن علي بن مزيد الاسدي [ابي الحسن] بن الامير مزيد الحلي الاسدي صاحب [الحلة] العراقية التي ذكرها ياقوت الحموي بكتاب معجم البلدان بقوله [انها مدينة في ارض بابل] ووصفها المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي دعاة الامام المستنصر بالله الفاطمي [بانها مدينة على بعد ستين فرسخاً من بغداد وتسمى ايضاً [الجامعين]]. عرفت هذه المدينة وخاصة بالعهد العباسي بانها عاصمة امارة [بني اسد] او امراء بني مزيد وكانت تدعى ايضاً [حلة بني مزيد] نسبة لهذه الاسرة العريقة التي استوطنتها مدة تقارب المئتي عام ونيف اي منذ عام سنة ٣٠٣ هـ الى سنة ٥٤٥، اما اسرة بني مزيد هذه فقد عرفت ايضاً بتشيعها للفاطميين منذ عهد بعيد بالرغم من وجودها في قطر يخضع للخلفاء العباسيين ولكي ندلل على هذا التشيع وقدمه واصالته اتينا ببعض المصادر التاريخية التي تثبت ما المحنا اليه فنقول :

ان هذا التشيع ازداد وضوحاً وقوة في عهد القائم العباسي المناصر للمستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٣٨ هـ حينما اوفد الخليفة الفاطمي المنوه عنه داعي دعاة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي للبلاد العراقية ليحمل القبائل فيها على شق عصا الطاعة على القائد

العباسي وتأييد القائد البويهي المتشيع « ارسلان البساسيري » -ابي البركات ، وجاء ايضاً بأنه عندما احرق ضريح موسى الكاظم وحفيده محمد بن علي الجواد وقبور بني بويه وقبر موسى بن جعفر ومحمد بن علي انتهى الخبر الى نور الدولة «دبيس بن مزيد» فعظم عليه واشتد حزنه وبلغ منه كل مبلغ لانه واهل بيته وسائر عمالهم كلهم من الشيعة (١) وجاء ايضاً بكتاب المؤيد في الدين الى دبيس عندما كان يستنفر القبائل العربية لحرب العباسيين ما يلي: «والله لقد غمني في سيدنا الدكتور هذه الافعال عن مثله تصدر وهذه الاخبار عنه تؤثر وتنشر وقال : ايستحق منك يا شيخ العرب ان تجازيه هذا الجزاء ولو انه من بني يزيد بن معاوية الذين تبرأ منهم فضلا عن بني علي عليه السلام الذين تتوالاهم (٢). وجاء بالعهد الذي كتبه المؤيد في الدين للامير دبيس ما يلي : « ولما استقر بحضرة امير المؤمنين عليه السلام ما حباك الله به من كرم الاعراف وكونك بالولاء لاهل البيت عليهم السلام لمة في العراق » وجاء بالعهد المذكور ان الامام المستنصر بالله قد لقب الامير دبيس «بالامير سلطان ملوك العرب سيف الخلافة » صفي امير المؤمنين (٣) .

وجاء ايضاً ان موقعة سنجار كان على رأسها البساسيري ونور الدولة دبيس ابن مزيد وعلى رأس الفريق الثاني قريش ابن بدران صاحب الموصل وقتلمش ابن عم طغرلبك وسهم الدولة ابو الفتح بن عمرو وقد انهزم قريش وقتلمش (٤) . وجاء بأن نور الدولة دبيس بن مزيد وقد عاش ٨٠ عاماً كان فيها اميراً نيفاً وستين سنة تولى الامارة في سنة ٤٠٨ هـ بعد وفاة والده ابي الحسن بن مزيد وقد نازعه اخوه ابي الحسن الامارة فلم ينجح وكان ابن مزيد هذا من اكابر امراء العرب ومن حماة الشيعة (٥) وقال المؤيد في الدين : فبنيت على المسير امري

---

(١) ابن الاثير ص ٤٤٣ (٢) سيرة المؤيد في الدين ص ١٥٩ ، تحقيق الدكتور محمد كامل حسين (٣) سيرة المؤيد في الدين ص ١٢٨ تحقيق الدكتور محمد كامل حسين
(٤) ابن الاثير جـ ٨ ص ٤٣
(٥) السيرة المؤيدية ص ١٢٤

واستدعيت من الامير منصور بن الحسن الاسدي الذي كان مالكاً الجزيرة الدبيسية بجوار خوزستان في سنة ٤١٨ هـ من الفرسان الجياد من وصل صباحي الى ان حصلت في حلة بني مزيد (١). وذكر بأن ابناء دبيس بن مزيد وهما الامير منصور وبدران وحماد قد اسروا قرب الكوفة بالمعركة التي حدثت بين خمارتكين الطغرائي والبساسيري (٢). وجاء ان دبيس بن مزيد قد زوج ابنه الامير منصور «بهاء الدولة» من ابنة ابي البركات البساسيري (٣). وجاء ايضاً عند ذكر موقعة سنجار بأنه قد خرج قريش بن بدران واتى الى نور الدولة دبيس بن مزيد فأعطاه منع من لدن الامام المستنصر الفاطمي وانضم اليهم بنو كلب وبنو عقيل وبنو نمير وفي هذه الموقعة يقول ابن حيوس الشاعر الدمشقي المشهور (٤).

عجبت لمدعي الآفاق ملكا   وغايته ببغداد الركود
ومن مستخلف بالهون يرضى   يذاد عن الحياض ولا يذود
واعجب منهما سيف بمصر   تقام له بسنجار الحدود

اذن بعد ايراد هذه المصادر نستطيع ان نقول مطمئنين بان هذه الاسرة العربية العريقة من الشيعة الاسماعيلية الامامية الذين ساروا على النهج بموالاة الفاطميين ، ولكي لا يبقى مجال للاستغراب بعد ذلك اذا قلنا ان [الامير مزيد الحلي الاسدي] اتصل بسنان راشد الدين في «مصياف» واصبح شاعره المحبب فضلا عن اشتراكه بالحروب الصليبية مع الفرقة الاسماعيلية التي سارت تحت لواء صلاح الدين الايوبي للبلاد المقدسة (٥). ولد بحلة العراق سنة ٥٣٨ هـ ومات في مدينة «مصياف» السورية سنة ٥٨٤ هـ حيث لايزال ضريحه قائماً فيها للآن الى جانب ضريح سنان راشد الدين بجبل « مشهد ».

لهذا الشاعر عدد لا بأس به من القصائد المتفرقة في الكتب المخطوطة الاسماعيلية تشكل بمجموعها ديوانا قيما، وقد اخذنا على عاتقنا جمعه وتحقيقه. ولقد لفت نظرنا بمجرد دراسة هذا الديوان ان هذا الشاعر الرقيق لايوجد من يماثله بين الشعراء المتأخرين سوى الامير تميم بن الامام المعز الفاطمي فكلاهما شاعر رقيق وصاف نشأ في بيت عريق ومزج الغزل بالفلسفة باتخاذه معشوقاً مرموزاً وكلاهما ايضاً دافع عن عقيدته واستحب الموت في سبيلها ، هذا ونلمس من قصائده المعقودة اننا امام شاعر بائس امتلأ قلبه بالحزن وتقاسمته المحن والهموم والآلام وحرقة البعاد فذهب يفتش عن امل ضائع [وامام] مستور. ثم نلمس بأنه كان كثير الشوق الى موطنه [الحلة] مركز امارته العريقة فكان يذكرها دائماً وهذا دليل على ما كان يتمتع به في موطنه من الاستقرار والهدوء وعزة الجانب ووفرة الكرامة والحب والتقدير من ابناء عشيرته واصحابه، وقد كانت بالفعل جميع قصائده صادرة عن طبيعة الشاعر المرهف الحس والهامه بالعاطفة الجياشة بالحب العقائدي الخالص التي تختلف بنصها وروحها عن بقية القصائد الاخرى التي نظمها شعراء آخرون من فرق اسلامية اخرى ، وهذا يثبت ما للعقائد الاسماعيلية من مصطلحات والفاظ لايفهمها ولا يدرك معانيها الا من عاش بكنفها وشرب من منهلها وكان من الدعاة لهذه العقائد او من الشعراء الملهمين امثال ابن هاني ، والامير تميم ، والمؤيد في الدين ، والاسكندراني ، وابي حصينة المعري والعقيلي وغيرهم . هنالك ابحاث عديدة متنوعة نرجىء بحثها الان مخافة التطويل تاركين ذلك لمقدمة الديوان الذي اعتمدنا ان نقدمه لجمهور الادباء ، والان فلنسمع للامير مزيد يقدم لنا بعض مقاطع من شعره .

طرب الفؤاد وهاجه ذكراك   وجلا بصائره نسيم هواك
هل يا ترى بعد الفراق اراك   بعد اللقاء فما اطيق جفاك
ويزيدني شوقي وطرفي الباكي

ان مت في قتل الغرام فعزتي   عفو الحبيب وصفحه عن زلتي
يا منية القلب الكسير وفتنتي   من ذا الذي افتى واحرق مهجتي
هل راشد الدين الذي افتاك ؟

(مصياف) يا دار الامانة والوفا   يا موطن الخلان اخوان الصفا
يا من الى اعتابهم قلبي هفا   جودوا علي بعطفكم فلقد كفى
ما نابني من حرقة وهلاك

وهذا مقطع من قصيدة تضم تعابير اسماعلية فلسفية :

بلغنا من الأيام ما قد نريده   بسعد امام اسعدتنا سعوده
وعشنا فشاهدنا من العز مشهدا   شواهده في كل عصر شهوده
ونلنا المنى لما قصدنا بوردنا   امام زمان لا يخيب قصوده
فمات حسود الدين غيظا وغصة   ومن خص بالتأييد مات حسوده

ومنها :

فدونكها من ابن مزيد مدحة   يطيب لها عند اللقاء قصيده
عليك سلام الله ما لاح بارق   وما سبحت في يوم غيم رعوده

وهذا مقطع من الغزل الرقيق :

جمالا بدا ينجلي كالقمر   ونورا على جبل منتشر
وشمسا تجلت الى العارفين   فشاهدها البدو ثم الحضر
عناية رب العلى قد بدت   تبلغ عن امره ما امر

---

(١) السيرة المؤيدية ص ٧٤ (٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٤٧
(٣) ابن الأثير حوادث سنة ٤٤٤ هـ (٤) ابن الأثير حوادث سنة ٤٤٤ هـ . (٥) سنان وصلاح الدين تأليف عارف تامر

ذوات خفيات قد ابدعت   تلوح لنا من طرفها المستتر

وهذان مقطعان من قصيدة تكاد تكون نسيج وحدها وابتكاراً جديداً في عالم الشعر فقد جعل الشاعر عدد مقاطع هذه القصيدة ثمانية وعشرين مقطعاً لعدد منازل القمر وكحروف الابجدية ومنها :

حرف الضاد :

ضيعت عمري باللذات واللعب   كأن بالرأس جني تولع بي
جملتهم دون خلق الله محتسبي [الضاد] ضيعت راسمالي ومكتسبي
منهم وفيهم عسى الأفراح تأتيني

حرف الذال :

ذلت نفسي لمن اهوى وقلت له   ان كان جسمي تخلا سوف اقتله
او كان قلبي سلا ما عدت انقله [الذال] ذرني ومن اهوى فمندي له
حبا يقربني عفواً ويدنيني

وهذه ابيات من الغزل الرقيق يأتي فيها الشاعر على ذكر موطنه «الجامعين» كما ذكرنا :

طيف الحسناء من بعد الكرى طرقا   ليلا فهاج بي الاحزان والقلقا
عجبت وهي الى جنبي تعاتبني   ما كان احسن هذا العتب لو صدقا
هل لي برجعة عيش كنت اعهده   [للجامعين] وبرق البين ما برقا
ايام اخطر في روض الصبا مرحا   ولمتي « جثلة » تزهو لمن رمقا

ومنها :

وكيف افزع من ريب الزمان ولي   كف بحبل بني الزهراء قد علقا
وصاحب الوقت ذخري عند آخرتي   اذا النفوس رأت في موتها رهقا
فهو السبيل سبيل الله متضحا   للمقيد والعروة الوثقى لمن وثقا

ومنها :

عجبت مدامة زاغت بصائرهم   عنه وما عرفوا القول الذي سبقا
ضلوا وهل يهتدي من ضل في طرق   لا يهتدوا بدليل يعرف الطرقا

قوم كأنهم خشب مسندة   لا يفقهون اذا ما باطل زهقا

وهذه ابيات من قصيدة طويلة :

وكنا بجدران الرصافة (١) عصبة   فلاحت لنا الانوار والسر نادانا
وجئنا لمصياف نطوف بارضها   ونقضي بها فرضا ونطلب غفرانا
ايا راشد الدين المعظم شأنه   اتيناك زوارا فأقبل لمسعانا

ومن قصيدته الكبرى «رحلة الامير مزيد» نقدم بعض المقاطع :

وهيأت عيسي للنوى وعددتها   ولما نعى ناعي الفراق شددتها
وخاطبتها باللين لما امرتها   من الحله الفيحاء حين تركتها
وبغداد خلفي لم اطأها بمنسم

ومنها :

ولما برانا شدة السير والعنا   وكادت مطايانا تموت من الضنى
نزلنا قليلا واثنينا بركبنا   ولا شيء يثنينا ويوقف عزمنا
الى حلب والليل ليس بمقتم

فبتنا بها عند الرئيس ومدنا   بانعامه بل للرحيل اعدنا
وودعنا والليل يظلم ضدنا   ولما وصلنا ارض شيذر (٢) صدنا
مسيل من العاصي شديد التهجم

ومنها :

فرحت وقلبي للتذكر قد وعى   الى داعي للحق ارواحنا دعا
فلا ارتجي [الاهو] ان كان اودعا   وسرنا الى مصياف سعيا كما سعى
الى البيت قوم من قريش وجرم

وهذه ابيات يرد بها على احد معارضيه :

الام والحق قد نادى مناديه   وانت ما بين تكذيب وتمويه
وقد رأيت طريق الحق واضحة   فقمت تطرق ابوابا من التيه
فلو علمت الذي تنفي وتثبته   لما اتيت الى الاثبات تنفيه
فاسكت فقد يكتفي بالعقل صاحبه   فهو الدليل الى منهاج باريه

وهذه ابيات من الغزل الرقيق :

برزت وقد جم الفراق وقد   نعق الغراب يشتت الشمل
فكأن منبع جفنها هتن   وكأن موضع خطوها وحل
وحواجب تزهو كأنهما   قوسان يمرق منهما النبل

ومنها :

فوصالها بعد وجفاؤها قرب   وكثرة وعدها مطل
ولقد شربت اجاج بحرم   زمنا ومر مذاقه يحلو
وطويت ايامي على خطر طيا   يشيب له وله الطفل

واخيراً فهذا شاعر اسماعيلي سوري لم يأت التاريخ على ذكره قدمناه لقراء مجلة «الاديب» الزاهره، لندلل على تاريخ هذه الفرقة المجيدة، ولنكشف عن يسير بعض اعلامها الذين لعبوا دوراً هاماً في ميدان الفكر والحروب.

سورية - سلمية   عارف تامر

---

(١) من قلاع الاسماعيليين على بعد ثمانية اميال من مصياف
(٢) من قلاع الاسماعيليين ، ذكرها امرؤ القيس، على ضفاف العاصي